عبد العزيز كوكاس

في حضرة الإمبراطور المعظم كوفيد التاسع عشر

منشورات النورس

الكتاب: في حضرة الإمبراطور المعظم كوفيد التاسع عشر

الكاتب: عبد العزيز كوكاس

الناشر : منشورات النورس

الإخراج الفني والغلاف: توفيق القزماني

الطبعة الأولى: أكتوبر 2020

المطبعة: دار القلم - الرباط

رقم الإيداع القانوني: 2020MO3373

ردمك: 978-9920-622-78-3

جميع الحقوق محفوظة

البريد الإلكتروني للمؤلف: gougas61@hotmail.fr

9 789920 622783

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2020

إهداء

إلى الصديق الراحل أحمد العقاد
الغائب الحاضر أبدا..
إلى رشيد العلوي الصديق الهش مثل قُبلة
المتشبث _ على كبر _ بالحبل السري للطفولة..

تقديم

كورونا ليست مجرد جائحة اكتسحت العالم وشلت دورة الحياة في كل أنحاء المعمور، وأدخلت ثلثي البشرية في الحجر الصحي لشهور، لقد كانت فرصة نادرة في الوجود لإعادة مساءلة القيم الوجودية التي أسندنا عليها ثقتنا بتفوق الجنس البشري وإخضاعه للطبيعة وتطويعها من أجل إسعاده.. هذا الفيروس غير المرئي الذي لم تتضح بعد كل أسراره وطبيعته ومنشئه، زلزل الكون وجعلنا نلقي خلفنا كل القناعات التي استكنا إليها لقرون طويلة.

كانت لحظة الحجر الصحي نقمة على العالمين، لكن ككل نقمة توجد في طياتها نعمة ما، الخلو إلى الذات، التفكير في الجوهر الإنساني بعمق أكبر، لنصمت قليلا لنرى الكون بعين قلقة، بلا غرور أو كبرياء.. هذه الكتابات التي جاءت من وحي فيروس كورونا، حاولت أن تمسك بالجوهري في سياق الحدث المعولم وإسقاطاته الرمزية والثقافية والسياسية والمجتمعية، في محاولة لوضع اليد على التغيرات التي من غير المستبعد أن يفرضها الفيروس التاجي على قيمنا الكونية.. لست مؤرخا ولا عالم أوبئة، ولست باحثا في السوسيولوجيا أو مختصا في دراسة التحولات البنيوية للمجتمعات البشرية السائرة نحو إعادة بناء إستراتيجية جديدة لأفقها... وإنما ككاتب ومحلل صحفي كنت معنيا بالتأمل ومحاولة ملامسة مركز التحولات التي من المحتمل أن يفرضها الفيروس التاجي على القيم والسلوكات والبنيات والعلاقات والأفكار..

وقد وجدت سبيلي للتعبير عما عشناه خلال هذا الوباء في السخرية كقلب للعالم لإعادة فهمه واستيعاب تحولاته بعد أن أصبح العالم المفتوح والقرية الصغيرة،

منطويا على نفسه كل دولة توجد في وضع قنفوذي لحماية مجموعتها الوطنية من عدوى فيروس غير مرئي لا يترك سوى أثره المدمر على الإنسان والاقتصاد والقيم والعلاقات الاجتماعية.. وفي التحليل السياسي الذي يحاول ملامسة التغيرات الجيو سياسية والقيم التي كان لوقعها ارتجاج قوي كما في الأحداث الكبرى التي عبرت التاريخ البشري وتركت وشمها عميقا في مساراته.. كما وجدت في الترجمة سندي لوعي متعدد بأبعاد كونية، سعيت من خلالها إلى بسط كيف يفكر الآخر/ العالم المتقدم في الإشكالات التي فرضها الفيروس الإمبراطوري على البشرية..

ما خططته هنا هو محاولة لملامسة قضايا شائكة ومتشعبة، ما يشبه المسودة الأولى للتفكير العميق الذي أستحي أن أزاحم فيه ذوي الاختصاص من علماء ومؤرخين وسوسيولوجيين وأنثرولوجيين وفلاسفة وغيرهم.. هل الوباء التاجي كحدث جلل يمكن أن يكون له أثر أكبر على انعطاف تاريخنا المعاصر، حتى يؤدي إلى انهيار النظام الكوني أو تغيير جيوسياسي من حجم عودة شمس العالم إلى الشرق مع التنين الصيني؟ هل تؤدي الوقائع الكبرى بالضرورة إلى تحولات جيوسياسية كبرى؟ وبحكم الاختلاف حول هوية فيروس كورونا أهو طبيعي أم سلاح بيولوجي، كيف غذت نظرية المؤامرة الأكاذيب الكبرى المرتبطة بكوفيد 19 وكيف استفادت منها الأنظمة الأقل شفافية والأكثر تكتما؟ ولم يتأخر السياسيون والقادة في اتخاذ تدابير استباقية للتخفيف من حجم الخسائر رغم وجود تنبؤات علماء البيولوجيا وأحوال الطقس والزلازل والبراكين والأوبئة... بالكوارث العظمى بما فيها فيروس كوفيد 19 قبل حدوثها؟ هل لقلة التبصر أم لتكلفتها المالية والاقتصادية وعدم مردوديتها السياسية في استقطاب الأصوات الانتخابية لأن الجمهور لا ترضيه تكلفة الاستعداد للكوارث إذ لا يفكر سوى في الخروج منها بعد وقوعها؟

ما منح جمالية خاصة لهذه الجائحة قياسا للوحوش الفيروسية السابقة كالطاعون، الكوليرا، التيفويد والجذري.. هو أن وباء كورونا المستجد جاء في زمن

التطور الرقمي وسطوة وسائط التواصل الاجتماعي التي منحت الفيروس المعولم طابعا استثنائيا وأعطته أبعادا غير مسبوقة في تاريخ الجوائح والأوبئة.. كيف أعاد فيروس كورونا قيم السحر إلى العالم والتبشيرات القيامية المنذرة بالعذاب الإلاهي ونهاية العالم؟ في ذات الآن أصيب النظام الاستهلاكي الذي غدا أسطورة عالمنا بما يشبه الجرح النرجسي، حيث انقض الناس تحت رعب الجوع والموت على المنتوجات والسلع الفائضة عن الحاجة، كأنهم يخشون بقاءها بعد فنائهم، أو أن تكتسب حياة خاصة بها وهم من يصنعونها ويرسمون مسار حياتها وموتها في آن؟

وإذا كانت الدول والشركات الكبرى للتكنولوجيا الفائقة الذكاء قد سعت لإبداع تطبيقات رقمية لتتبع ومحاصرة الوباء التاجي المتفشي، فإن مناصري حقوق الإنسان دقوا ناقوس الخطر ضد توظيف الجائحة لصالح الشركات العملاقة والأجهزة الأمنية للولوج إلى البيانات الخاصة للمواطنين وضرب مبدأ الحق في الخصوصية، هل نشهد بداية ميلاد الاستبداد الرقمي ونمذجة وتنميط الإنسان في غياب شرعنة الحقوق الرقمية، التي من شأنها إقامة توازن مرن بين حق حماية الصحة العمومية والحق في الخصوصية، خاصة وأن منشأ التطبيقات الرقمية لتتبع انتشار فيروس كورونا هي دول «الاستبداد الشرقي» بآسيا.

فرضت التدابير الاحترازية لحماية الصحة من الوباء الفتاك ارتداء القناع الصحي الذي أصبح إجباريا رغم مقاومة الجمهور الذي اعتبره حدا من الحرية الشخصية واجتهدت الدول والمؤسسات في إجبار الناس على ارتداء الكمامة التي غدت رمزا لعصرنا التاجي تخفي تحتها طبقة كثيفة من الأساطير والحكايات، وكما سبق أن كشف كلود ليفي ستراوس «طريق الأقنعة» في الحضارات القديمة، سيأتي من بعدنا من يكتب تاريخنا ويكشف ما كنا نتقنع به، كيف سنعيش - إذا ما طال مقام فيروس كورونا المستجد بيننا - بأقنعة مزدوجة، «بيرسونا» متناقضة، القناع النفسي الذي قال عالم النفس كارل يونغ إن كل واحد منا يختاره ويقدمه للمجتمع

ليجلب تقديره واحترامه واعترافه، وقناع الكمامة المفروض بقوة القانون، والذي يحيل على التضليل والتمويه والخوف والارتياب وتشتم فيه رائحة الموت؟

ثمة إسقاط آخر لفيروس كورونا ويرتبط بنهاية الحضور الفيزيقي في مجالات العمل والإنتاج، مع فورة التكنولوجيا الرقمية وفرض التباعد الاجتماعي، يتوقع الخبراء انقلابا على مستوى تقاليد العمل عن قرب، في جل مناحي الحياة، حتى معمار المكاتب والمعامل ووحدات الإنتاج عموما ستعرف زلزالا غير مسبوق بسبب الفيروس التاجي، وإذا كانت المطبوعات والصحف الورقية قد تعرضت للكثير من الضربات منذ اندلاع الثورة الرقمية وفورة وسائط التواصل الاجتماعي، فإن فيروس كوفيد 19 سيسرع من النهاية التراجيدية للإنسان «الجونتبرغي» وميلاد الإنسان الرقمي كما سبق أن بشر بذلك الخبير الإعلامي ماكلوهان، غدا سنكتب على الصفحة الأولى للعدد الأخير للجرائد الكبرى: «وداعا، فلتهنأوا بهواتفكم البليدة» كما فعلت يومية «الإكسبريس» الأمريكية، ونعلن موت الصحف الورقية التي تبحث اليوم عن الاستشهاد مثل الفرسان النبلاء في زمن غير نبيل، إذا لم نسارع اليوم إلى التفكير الجماعي في استثمار الجهد لتحويل المنتوج الورقي إلى محطات رقمية للتكيف مع تقلص الورقي في مساحة حياتنا اليوم..

هناك مواضيع كثيرة تبدو ملفتة للانتباه مع ما أفرزته جائحة كورونا.. مثل التحولات الكبرى التي فرضها الفيروس على أشد العلاقات حميمية لدى الإنسان.. الجنس، وكيف أن الجيل الخامس يعيش ثورته الخاصة على مستوى الجنس والعلاقات الحميمية التي ستتحول بسبب التباعد الاجتماعي ونصائح السلطات الصحية، نحو الرقمي والجنس عن بعد لتعويض الفراغ العاطفي بوسائل للإثارة الجنسية وهو ما يشي بتغيير المتعة لموضعها من الجسد إلى صورته، من الاتصال إلى الانفصال، وهو ما سيكون له تأثير ليس على مستوى الممارسة والسلوك وإنما

على نظام القيم والتمثلات ونظرة الجيل الخامس إلى الكون، لعله قد بدأ يصنع ثورته الخاصة..

ثمة ملمح آخر مثير لزمننا الكوروني يتعلق بـ«الكورونوفوبيا»، كيف يتم زرع الرهاب في المجموعة البشرية إما بإخفاء المعلومات الحقيقية أو نشر الأخبار الزائفة والمضللة، أو عبر تنمية الخواريزميات الدقيقة لوسائل التواصل الاجتماعي لزيادة تفاعل الناس مع ما يخلق الرعب ويكيف أدوات السيطرة على المجموعات بطرق ذكية فيها الكثير من المراوغة والمخاتلة.. جزء كبير من هذه الأسئلة هو موضوع كتابي هذا «في حضرة الإمبراطور المعظم كوفيد التاسع عشر».

سخرية مستنبتة
من زمن الحزن الرمادي

شعب المناعة القوية في حضرة الإمبراطور «كوفيد» التاسع عشر

«الحرب ألذ الهوايات، إنها فن ملاعبة الموت»

سعيد عقّل

يا أيها الإمبراطور كوفيد التاسع عشر المبجل.. الذي نزع غلالة السحر عن العالم، وكشف لنا صحة النظرية الفيزيائية للكوارث، بأن الأحداث الضخمة في الكون تفجرها أسباب صغرى تكاد لا تميز.. بسهولة أوقعتنا في فخ «الكورونوفوبيا»، وجعلت رقاب الإنسانية على أنشوطة الموت بشكل بئيس، لنتعلم معنى تنسم نعمة الهواء النقي..

شكرا لك أنك قلصت ثرثرتنا إلى الحد الأدنى، وكسرت الكثير من أمانينا وأحلامنا حتى عدنا نبحث فقط عن فضيلة النجاة من جبروتك، وفي كل مرة نختبر سلامة جهازنا التنفسي ونقوي مناعتنا بكل الوصفات المعروضة في سوق العطارين والصيادلة، كي لا يضيق علينا الجلد الشبيه بالبرتقال الذي وصفه ببراعة بلزاك في روايته «peau de chagrin» ذلك الجلد الذي يضيق عمّن يلبسه كلما حقق أمنية من أمانيه!

من أين لك كل هذه القوة أيها اللامرئي، يا مولانا الإمبراطور كوفيد 19؟ كيف اجتزت كل الحصون والقلاع وأصبت وزيرا منا؟ عبد القادر اعمارة الذي بقي وفيا لحقيبته في وزارة النقل، فنقل معه فيروس كورونا من الخارج، وكاد يصيب به حكومة الكفاءات، ونبقى لوحدنا بلا كفاءة ولا حكومة! ها أنت قد أرغمت حكومة بكاملها،

كنا نطالبها بإجراء فحوص وتحاليل مستمرة على واقعنا للتشخيص والمعالجة من كل الأمراض والعلل، فلجأ أعضاؤها أجمعين مسرعين إلى المختبر لإجراء التحاليل عنك يا كوفيد 19..

اعذر جهلنا نحن الذين سخرنا منك بالأمس، شعب «البوماضا الصفرا» و«الرفيسة العمية» و«راس الحانوت» و«الشيبة وأتاي والزعتر والحبة السوداء والقرنفل»، شعب المناعة القوية الذي لا يقهر، حتى قيل إنك يا مولانا كوفيد قد مُت لمّا مسست جسدا مغربيا، والسبب أنك أُصبت بالتسمم مثل كلب والينا المعظم!

وما أن سمع العوام منا بأنك قد وطأت أرضنا وأهلّ وجهك علينا، حتى هرعوا زرافات ووجدانا إلى المستشفى ليطلعوا على هيئتك البهية غير هيّابين ولا فزعين، وبعضهم أخذ سيلفي مع أول مريض مغربي سكنته يا كوفيد 19.. وهو ما أغضبك فأطلقت جائحة صغيرة من ريحك الأصفر ليحصد العديد من المصابين منا، وامتدت يدك لتزعزع اطمئناننا وقوتنا التي لا تقهر، حتى أصبتنا بالهلع وجعلتنا في حالة حرب مفتوحة، أمة عزلاء إلا من إرادتها في الحياة وتضحيات أطقمها من أطباء وممرضين قطعوا إضرابهم نداء للواجب الوطني، وأمن وجيش ورجال ونساء الأمن والدرك الملكي والوقاية المدنية والجمارك والعديد من جنود الخفاء، تجاه فيروس غير مرئي يتطاير مع الرذاذ ومع عطسة بئيسة حتى لو كانت من فم أدرد، نحن الذين كنا نود أن نموت من أجل الوطن ومن أجل تحرير فلسطين..

لا تهزمنا يا مولانا المعظم كوفيد التاسع عشر.. رجاء، كن رحيما بهذه البلاد أيها الإمبراطور! لقد أحسسنا معك أن الحياة جميلة وتستحق أن تُعاش برغم أنك زرعت فينا القيامة، حيث «يفر المرء من أخيه».. فكن بنا رؤوفا يا كوفيد 19 المبجل، لا تُيتم أطفالنا ولا تترك نساءنا ورجالنا ثيبا وأرامل.. لقد خبرت فزعنا وقست بأنا لا نختلف عن باقي الآنام برغم قلة حيلتنا وحتى استهتارنا.

شكرا لك يا مولانا كوفيد 19الملقب بكورونا، أي الفيروس التاجي، لأنك علمتنا بسرعة البرق قواعد النظافة التي لم تلقنها لنا مدرسة ولا مدرس، رغم ترديدنا منذ الصغر مثل ببغاوات لأناشيد النظافة من الإيمان.. حيث أصبحنا ننظف أيدينا بالصابون عشرات المرات في اليوم، ونعقمها بالمطهر حتى تغير طعم وجباتنا التي كانت لذيذة، فنحن أمة «كل ما صدّى زاد لذة»!

وشوّشت حتى على علاقاتنا الحميمية يا إمبراطور، حرمتنا من القُبل والعناق وضم من نحب ومن لا نحب، وإذا دام مقامك لا قدر الله، فقد ينقرض نسلنا!

جعلتنا يا مولانا كوفيد أكثر براغماتية ولأقل أكثر عقلانية.. بدل غرورنا الاستثنائي. برغم تفسيراتنا الأولى الغبية حول موطنك يا كوفيد 19 المعظم، التي كانت تسندك بعقلية المؤامرة، إلى أمريكا وإسرائيل أم الشرور وإلى الشركات العالمية الكبرى التي تصنع الداء والدواء، لكن في اللحظة التي بدأ غزوك يزهق أرواحا كثّر هنا وهناك من مختلف الجنسيات والأمم، في ظرف بضعة أشهر حصدت قرابة أزيد من 700 ألف من الأرواح، وأصبت أكثر من 16 مليون شخص عبر العالم.. من يفعلها غير إمبراطور من نسل هاديسي؟! قلنا عنك يا مولانا كوفيد إنك من صنع الشيطان الأمريكي والإسرائيلي ضد الصين وإيران الطيبتين، وحين بدأت تحصد أرواح العالم بلا تمييز وتتعافى منه الصين، قلنا إنها ضربة معلم، حيث إن فيروسا إمبراطوريا بحجمك وهالتك يا كوفيد 19 لا يمكن أن يكون إلا من صنع إمبراطورية الصين العظمى التي ابتكرت الفيروس وأفشته بينها، فخدعت زعماء الدول الغربية لتنقذ اقتصادها من قبضتهم، حيث سارع مالكو كبريات شركات التكنولوجيا ذات القيمة المضافة العالية من الأثرياء الأمريكيين والأوربيين إلى بيعها بثمن بخس للحكومة الصينية، وبذلك فقد جنبتنا يا كوفيد 19 ما كنا نعتقد أنه حرب عالمية رابعة من خلال هذا التكتيك الاقتصادي الجهنمي الذي لا يقع إلا في مخيلاتنا الكئيبة والحاذقة في تبرير الشيء ونقيضه بلا وجل..

شكرا لك أيها الإمبراطور لأنك أدخلت الفرحة إلى قلوب الكثير من تلاميذنا وطلبتنا بعطل مفتوحة ليس لهم سابق عهد بها؟ وهنأت الكثير من الزيجات بالتصاق الأزواج بالبيت والطمأنة حتى من رائحة شك الخيانة، وجعلتنا نغنم بنعمة الجلوس إلى جانب الأهل الذين اكتشفنا كم هم طيبون..

ستسجل أيها الإمبراطور كوفيد التاسع عشر إلى جانب السيدة الكوليرا والسيد الطاعون خاصة الأسود أو الدبلي بترقية الأمم المتحدة لك إلى رتبة جائحة، أي جنرال الأوبئة وهي أعلى رتبة دولية حتى اليوم في الأوسمة الإمبراطورية للجوائح.. لا يحظى بها حتى الموت.

قلنا في البدء إنك مجرد جرثومة حربية، ولدت في مختبرات عسكرية خبيثة، لكن فيما بعد سنكتشف أيها الإمبراطور كوفيد 19 أنك سليل نسل عظيم قادم من سلالات الكورونا والسارس.. عائلة قديمة بدأ التعرف عليها منذ 1960!

يا القوي العاتي الذي كشفَنا، يا كوفيد التاسع عشر.. كيف عرّيتنا نحن المستعدون لقول الشيء ونقيضه دون أن نحس بارتباك أو خطأ في الحساب أو المنطق.. وهيمنت- أيها الإمبراطور التاجي- على كل المفاصل الحيوية لدول العالم، وتمكنت بسرعة فائقة من بسط سيطرتك على الحيز الأكبر من كوكب الأرض.. شكرا لك لأنك مثل كل الأزمات الكبرى جعلت الإنسانية تعود لملامسة جوهرها الصافي لتتطهر من الخرافات والدجل، وتسحب البساط من تحت أقدام الأدعياء وتجار الأزمات.. نعترف بأنك غيرت عاداتنا، علّمتنا ما لم نعلم من قبل من الآداب و«الصواب»، والإكثار من الاستغفار والترحم حتى على من كنا ندعو لهم في صلواتنا بأن يفرق الله شملهم ويدمرهم..

وجعلت ترامب الذي يعبد الإله/المال، يدعو الأمريكان للصلاة تقربا من الرب الجليل، والإيرانيين الذين كانوا في كل أزماتهم يستنجدون دوما - بعد إدماء

صدورهم بالضرب – بالمهدي المنتظر وفاطمة وزينب وعلي، يلجؤون إلى الكفار من البنك الدولي ومنظمة الصحة العالمية طالبين النجدة لمواجهتك أيها الإمبراطور الكوروني المروع.

فرجاء أيها الفيروس التاجي المبجل كوفيد 19، لا تُطل المقام بيننا.. يكفي أنك علمتنا أكثر من السيدا ذاتها أن الجهاز التنفسي أهم من الجهاز التناسلي لنغنم بنسمة حياة.

وصية لمواليد برج كورونا

رجاء لا تأتوا مسرعين إلى العالم، لا نريد ولائم للحداد!

«هل قطع الجنس البشري كل هذا الشوط البعيد لمجرد أن يقضي على نفسه؟»
الفيزيائي ستيفن هوكنج

أي شكل ستكونون عليه، أنتم مواليد عصر كوفيد 19، الذين جاؤوا أو في طريقهم إلى الميلاد في عالم ينهشه فيروس قاتل انتشر في كل الأمكنة مخلفا وراءه – مثل بُوم– رائحة الخراب الذي لم يعد خجولا؟ هل فكرتكم قبل المجيء إلى هذا الكون شديد القسوة الذي لم يعد قادرا حتى على الاحتلام؟ هل ستطلقون صرخة الإعلان عن الحياة، أم ستملأون المستشفيات بالضحك والسخرية من عالم يبكي بلا دموع، يتسيد فيه بطل واحد هو الرعب والموت؟ فالضحك بلسم للشفاء والنسيان..

عذرا لمشاعر الأمهات الحاملات وللآباء الحالمين الذين يرقبون قرب الفرج، أخاطبكم أنتم يا أبناء الجيل الكوروني الصاعد (G.C) الذين ولدوا أو سيولدون في مستشفيات أو مصحات حزينة معزولين بدون دفء عائلي في زمن الحجر الصحي لحركية عالم ينكفئ على مداواة جراحه الغائرة جراء حرب سرية لم تضع أوزارها، أنتم الذين جئتم إلى الدنيا بلا لمّة عائلية ولا رنين للفرح ولا زغاريد تصدح في الأرجاء حيث تبدو البشرية كما لو راكمت كل فوائد قروض الحزن ليوم قدومكم، أنتم يا أبناء غد الغد الذين ولدوا وسط القفازات البلاستيكية والكمامات وأدوات التعقيم المفرطة حد العفن، في عالم أصبح عاريا أمام حقيقته بلا أصباغ ولا أقنعة.. لا ورود ولا زغاريد ولا مباركة للولادة ولا تزاحم على تسمية المولود

السعيد.. قدر لكم أن تكونوا مثل بطل فلم «رائحة» PARFUM، ميلاده كان إيذانا بموت الأم بشكل وحشي واللعنات تطاردها، لن تحسوا بالدفء والحنان.. لا أحد سيحضنكم، مثل الموت، ولا تسابق للأهل من أجل تحديد لمن تشبه ملامح وجوهكم: للأم أم للأب، أم فيكم علامات من العمومة أو الخؤولة التي تقف في الطريق، حتى الآباء والإخوة سيبتعدون عنكم، ولا الجيران سيدقون على أمهاتكم المنزل لوضع «الزرُورة» في حضنها، بين أصابع أناملكم الرقيقة، ويرقصن فرحا باعتلائكم منصة الوجود!

كيف ستذهبون بعيدا نحو الأفق الأزرق وترمون أسنان الحليب وتتوجهون بأمانيكم إلى السماء التي تبدو كما لو أنها اتخذت حيادها من عالم موبوء؟ كيف ستطلقون أجنحة الخيال عاليا مثل ملائكة لتفرحوا بعالم أحزنكم؟ فتحتم أعينكم لتروا أقرب مقربيكم، يرتدون القفازات والكمامات مثل أقنعة مهرجين في هذا الكورس الجنائزي، كأن العالم كله أمام الخطيئة الأولى لم تعد رئتاه تتنفس هواء الفرح بشكل سليم..

يا مواليد البرج الكوروني، الذين قدر لهم أن يأتوا في صمت إلى هذا الكون، لن تقرع طبول ولن تنشد مزامير ولا تراتيل للابتهاج بقدومكم، لن تسمعوا ضجيجا للفرح ولن تروا أردافا وأثداء تتمايل نشوى وترقص على أنغام الموسيقى والأهازيج بفائض شهوانية، العالم كله منشغل عن طقوس مجيئكم بلملمة جراحه والبحث عن آثار المجرم الذي ما ترك نصل سكينه في جسد الضحية، وأنتم «الشاهد الأخرس وحده يتحمل وزر الجريمة» كما يقول الشاعر زكي بيضون.. أي عالم تركنا لكم، نحن الذين نمارس يوميا التمارين الرياضية لحفظ لياقتنا البدنية ولم نهتم ذرة واحدة بكون مترهل له شكل الفيروس التاجي البشع، السعادة فيه مصابة بداء الكساح، والشمس التي تخترق أشعتها الحارقة ثقب الأوزون لا تزرع الدفء في الأوصال، والمطر الذي ظل ينزل مدرارا كلما ابتهلنا إلى السماء، تعرى من شفقته

بلا رحمة، صار يغرقنا بسيله أو يتشبث برحم جلباب أمه الأزرق؟

ماذا سنهديكم: بشرية بلا قلب، تعرت مثل ذئاب البراري الجريحة، عواؤها يخلق الرعشة في قطرة ماء والرعب في حبوب سنبلة يتيمة يمشط شعرها ريح الحقول التي امتلأت بالفزاعات بلا قمح ولا طير؟ وكون تسمم هواؤه وجفت ينابيعه وترهل من فرط السمنة بفائض الأحقاد التي تتدلى من السقوف مثل حبال المشانق، والنرجسيات القاسية والكوابيس المرعبة والرتابة العنيدة التي تتسيد في ساحاتنا؟

أيها الصبايا من الجيل الكوروني، يا المولعون بحرقة المجيء إلى هنا.. يقودكم حلم استكشاف مغامرة وجود ظل مشرعا مثل نافذة مفتوحة على الحب والعدالة والحرية والحلم، رجاء لا تطلقوا صرختكم الأولى الآن، عودوا من حيث أتيتم، ابقوا هناك وسط ينابيع صافية من حنو زائد ورقّة لا توصف، كولوا واشربوا هنيئين مريئين.. لم لا تتشبثون بمشيمة رحم أمهاتكم، ما يمثل لنا فردوسا مفقودا.. آه لو تعلمون، لا تبالوا بسؤال الأسبقية إلى الوجود: البيضة أم الدجاجة؟ دعكم هناك في حضن الرحم الدافئ، لا تسابقوا الخطو إلى الأمام، فنحن في زمن الحجر الصحي، لا مشّائين ولا صائدي أنجم بعيدة، والدنيا اليوم من حولنا كحلبة ملاكمة أو ساحة حرب مفتوحة نصارع وسطها من أجل البقاء فقط، الرعود تقصفنا بشتائمها وصراخ ضحايانا يعلو في الأكوان، وموتانا دفنوا بلا طقوس للجنازة ولا شاهدة على قبرهم، لا ظلال زيزفون تسندون عليها أسراركم وترسمون على جذوعها أسماء من ستعشقون، عودوا من حيث أتيتم أيها الجيل الكوروني، واللّه ليس لكم من مفر، فأفضل أن يكون العدو من أمامكم أو من خلفكم، من أن يكون فيكم.. فلا تتقدموا شبرا نحو ساحة الميلاد، إلى عالم بلا أحلام ولا وَهْم يوقظ النشوة في الأعين المسبلة..

أنتم يا مواليد البرج الكوروني، أتوسل إليكم لا تطلقوا صرختكم الأولى في مدن أشبه بصحاري تسكنها الأشباح والكوابيس، تشبثوا برغم نضج الأوان بمشيمة الأرحام، تجولوا هناك بين الحدائق وأفنان الرياض، انعموا بمساءاتكم الدائمة بلا أثر ذنب ولا حزن يتعقب خطواتكم.. ولا عدوى من فيروس قاتل يحصد الأرواح والطمأنينة من قلب الأحياء هنا المتلفعين بالحسرة والرعب الذي لا يوصف، لا نجوم تتلألأ في سمائنا، ونحن في عز الربيع لا وردة تبهج النفوس نحن المحتجزون وسط جدران عنيدة.. ولا تتجسسوا فلا حلم يقودنا سوى النجاة من أن يصيبنا فيروس كورونا الحقير بالعطب وتتوقف رئتنا عن ضخ الهواء المنتشي بالتحليق عاليا في شرايين جسدنا..

رجاء لا تأتوا الآن، فنحن ممنوعون حتى من الحق في إعداد ولائم للحداد، وغدونا بلا ظل مثل أشباح مسجونة في قمقم بيوتنا ننصت لأنباء الموتى يتساقطون كل دقيقة، حتى غدت الأخبار مثل نشرة جوية لا تحمل رائحة الغمام لحقل يابس، ثم نعود لكوابسنا وننتحب في صمت بدموع العجزة التي لا بارقة جمال فيها.

إلى أثرياء المملكة:
فكروا بغيركم لتسعدوا بثرواتكم

«وأنت تنام وتحصي الكواكب، فكر بغيرك، ثمة من لم يجد حيزا للمنام»
محمود درويش

أنتم الذين اكتنزتم الذهب والفضة وما سقط من متاع الدنيا بشراهة لا توصف، فكروا بغيركم ثمة من لم يجد قوتا للعيال، ودرهما أبيض ينفعه في زمن كورونا الأسود..

وأنتم محجورون اليوم في فيلاتكم الفخمة وقصوركم البهية، بين شاشاتكم الملونة وصحونكم المقعرة وآخر صيحات التجهيزات المنزلية.. لديكم الأواني الفضية والذهبية المزكرشة، وما تيسر من فاكهة ونخل ورمان، وحور عين مما تشتهي الأنفس وتلين، والجوار المنشآت في أعالي البحر وفي امتداد البر كالأعلام، ومن كل ما تطلبون زوجان كأنهن الياقوت والمرجان وخيرات حسان، فكروا بغيركم ثمة من لم يجد سقفا حقيرا يأويه من قر وحر نوائب الزمان، ويسف التراب أو يقتسم رغيفه الجاف مع أفواه كثيرة بأنفة عروة بن الورد!

وأنتم تحصون أحلامكم على أصابع من تحبون أو تشتهون متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان، وتعدون أموالكم التي هرّبتموها إلى الخارج مخافة انقلاب الأحوال وتحسبا من طوارئ الزمان، ها قد حرم عليكم السفر إلى الخارج، ولزمتم بيوتكم مثلنا، دون شك أحسستم أننا شعب طيب، برغم حقارتنا وفقرنا وجهلنا، ففكروا بغيركم، لا تنسوا من لم يجد كمشة طحين لإشباع البطون المسغبة، من

ظلوا يفترشون الحصير ويلهون صبيانهم بطهي الحصا على نار موقدة..

وأنتم تعدون فطوركم، تولمون الولائم والزرود بينكم، تشبعون بطونكم المتخمة، بقرب مسابح تحاكي زرقة السماء وحدائق تتخللها عيون تجري بماء عذب زلال وأشجار دانية القطوف.. فكروا بغيركم ممن يرضعون الغمام، من يقطعون المسافات الطوال من أجل «جغمة ماء» ومن لم يجد ما يسدد به فاتورة كهرباء، ووجد نفسه بسبب الوباء في العراء، بلا مأوى ولا ظل يستظل به.

وأنتم الذين سوقتم أحلاما لا قبل لنا بها تعد بالمطر وحلم الشجرة بأن تمنح ثمارها لكل عابري السبيل، وأن توفر ظلها لكل من أرهقتهم سياط شموس أوجاع الحياة، فكروا بغيركم.. بهؤلاء المقصيين من حظيرة اهتمامكم، هؤلاء المشردين بلا مأوى، الفقراء المحتاجين ذوي الأنفة الذين يربطون بطونهم بصخرة الجوع ولا يتسولون بكبريائهم، بالداعرات المغتصبات في أحلامهن، بأصحاب الموقف الذين حرموا من قوت يومهم، فكروا بجيوش المياومين والعمال الموسميين الذين كانوا أول ضحايا فيروس كورونا، قبل من أصيبوا به وأخذ يهدد حياتهم.

وأنتم تحصون أموال خزائنكم، وتتأسفون لانقطاع مال وفير عن شرايين شركاتكم بسبب جائحة كورونا، لا تنسوا قوت الحمام، ضعوا القليل من الزؤان في صندوق قفص العصافير التي ظلت تخدمكم، تُطربكم، وتقبل التراب الذي تمشي عليه أحذيتكم.

ها نحن في لحظة يخيم فيها شبح الموت على الأثرياء والفقراء، فالإمبراطور كوفيد التاسع عشر، ليس مرضا بلا نجوم، إنه وباء جامح، ويبدو كما لو أنه لم يميز بين الحقراء والأثرياء، الفقراء والأغنياء، المتقدمين والمتخلفين.. شكرا لباستور الذي كشف عن الجراثيم التي أرغمت أصحاب الرأسمال على تطبيب العمال وتأدية فاتورة علاجهم كي لا يصابوا بعدوى أمراضهم الحقيرة، أفلا تتعظون!

وأنتم السادة المحترمون الذين اعتدتم تغيير سياراتكم وسيارات أفراد عائلتكم من آخر الصيحات كما تغيرون جواربكم، فكروا اليوم بمن انقطع به سبيل الرزق مع توقف القطارات والحافلات من سواد الأمة، المفترض أن تكون مصدر السيادة، فكروا بالمقصيين من حقل اهتمام السياسات العمومية، بالمهمشين الذين يتناوبون على سرير واحد في غرفة بها العشرات من المكترين، كيف يقضون اليوم آناء الليل والنهار..

وأنتم تفكرون بأموالكم البعيدة عنكم في بنوك الدول التي كانت فراديس ضريبية وتحولت بفضل الإمبراطور المبجل «كوفيد 19» إلى جحيم كوروني يحصد العباد ويزلزل البلاد التي حصلتم جنسيتها الثانية تحسبا للطوارئ، لزحفنا الأخرق نحن «بوزبال» و«كحل الراس» من العوام والرعاع، فكروا بغيركم، ثمة شباب قادهم سراب وعودكم نحو سن اليأس وما عادوا قادرين على أن يربوا أيائل الآمال في زمن اليباب، ولم يكن حلمهم يتجاوز حاشية السرير الذي ينامون عليه إلا قليلا، فكروا في القاطنين في المداشر البعيدة والقرى النائية الذي تناوبت عليهم مصائب الجفاف وجائحة كورونا..

لستم كلكم لصوصا، ونهابين وسرّاق مال البلاد والعباد، فمنكم الطيبون والتقاة، ومن جنى ثروته بعرق جبينه أو إرث لا يد له فيما خلفه سلفه من مآسي، ومنكم من لم يسارع للحصول على جنسية أجنبية ليصبح من المحميين الجدد، ومنكم من أبان عن نخوة الكبار بالإحسان والتضامن مع المحتاجين خارج ضجيج الكاميرات، حتى لكأن يده اليسرى تجهل ما قدمته يده اليمنى.. أخاطب من استنزفوا ثروات قد يحصدها الموت، وأقول لهم فكروا بغيركم، فعلى هذا الوطن اليوم نحيى أو نموت، ولا يقفز من السفينة لحظة الغرق إلا الفئران، فلا ملاذ لنا أجمعين بعد أن عمّم فيروس كورونا عدواه الفتاكة على كل أطراف الكون.. وأنتم تخوضون حروبكم اليومية من أجل جمع المال ومراكمة الثروات، فكروا فيمن يطلبون السلام

مع العالم، من يحلمون بأن يمددوا أقدامهم على قد سريرهم، وأن تكون لهم وسادة ـ لا من ريش حمام أو نعام ـ تعطيهم الحق في الحلم بدل الكوابيس التي لا تفارقهم.

يا أصحاب الياقات البيضاء، الأنيقين جدا، بربطات عنقكم وبدلاتكم الرفيعة وسياراتكم الفارهة، يا من ظللتم تفكرون فقط بالصفقات الخاصة والمصالح الأنانية، فكروا بغيركم، بوطن يريد ألا يصاب باختناق رئتيه بسبب فيروس كورونا، لا تنسوا قوت الحمام ومن لم يجد حيزا للمنام ومن فقد حقه في الكلام.. كونوا للحظة واحدة في عمر هذا الوطن شمعة تطرد الظلام.. لكي نحيى جميعا في ود وسلام، ويومها نقول بلا حقد ولا حسد، عفا الله عمّا سلف، فقد أبليتم البلاء الحسن، وفكرتم بغيركم بما يليق بمن يقيم في ذات الوطن، وشكرا على تفهمكم، فهذه الرسالة باعثها النقد لا الحقد، لأن لي ثقة في أن العديد منكم تجري فيه دماء هذا الوطن فكونوا بقدر المقام، ولا تتركوا أمة عرضة للأورام.

محاولة للفهم كي لا نموت بلداء

هكذا حول فيروس كورونا الإنسان المعولم إلى فارس بلا وجود

«الموت يدفع الإنسان لأن يكون أكثر تيقظا للحياة»

باولو كويلو

فجأة فقدنا ثقتنا بعالم الوفرة وعصر السرعة والتقنية المتطورة، إذ اكتسى فيروس كورونا المستجد نفس سمات عصرنا.. التكاثر والتناسل والانتشار السريع، كل التقدم التكنولوجي وتكاثر الخيرات الطبيعية والأغراض المادية التي وصفها بدقة جان بودريار في كتابه عن المجتمع الاستهلاكي لم تحمينا من تهديد الموت والكورونوفوبيا، في ظل عالم تحولت فيه وفرة الأغراض والسلع إلى أسطورة جديدة، حيث تحول الاستهلاك إلى جوهر أخلاق عالمنا الذي يوشك أن يحطم كل أسس الكائن البشري.. كل هذه الوفرة والبذخ السلعي الزائد لم يصد عن الإنسانية حاجتها الأولى للبقاء على قيد الحياة.

وسط سطوة حضارة الإشباع والجشع أصبح الكائن الإنساني المتعدد، مثل نسخ مكرورة، واحدي ك«فارس بلا وجود» كما وصفه الكاتب الإيطالي «إيتالو كالفينو»، مستغرقا في قعر وجوده البيولوجي والفيسيولوجي، مجردا من الخيال والشعر والدين، حتى جاء فيروس كورونا المستجد ليعيدنا إلى صميم ما يشكل جوهر وجودنا، أي الوعي بقيمة الحياة وقيمة العالم الذي نعيش فيه، بعدما أصبنا بغربة عميقة عن ذواتنا وعن الكون الذي نسكنه، وأصبحنا مثل كائنات تتحدث بلغات مبلبلة، نحتاج إلى مترجمين لفهم بعضنا وفهم رسائل العالم إلينا..

حرب وجود لا حرب حدود

إنها الحرب.. هكذا بلا سابق إنذار، تُقرع الطبول ويعلو صوت النفير في كل أرجاء الكون، وينزل الجيش إلى الشارع بأسلحته الثقيلة، ويتكلف الإعلام بتأثيث المعركة ونقل صولاتها وجولاتها بالتفصيل كل دقيقة، بمعجم عسكري مثل الصحافيين مراسلي الحروب يغطون يوميات هذه الحرب النادرة الحدوث بمعجم عسكري(جنود، الصف الأمامي، العدو المشترك للأمة، وطننا المسالم، نكسب المعركة، لا صوت يعلو اليوم على الحرب ضد كورونا، لنؤجل تصفية حساباتنا في هذه المعركة المصيرية...)، وهو ما يهيج مشاعر الناس ويثير فزعهم كما يوقد حماسهم، فيعودون إلى وحشيتهم الأولى أو إلى تضامن العشيرة.

إنها حرب ضد عدو غير مرئي، مراوغ، مخاتل، خفي.. فيروس يقترب من الأسطرة بسبب المحكيات المتناسلة عن هالته، إنه مثل الإلكترون أدق الجسيمات المولدة لطاقة مغناطيسية، لا يُرى ولكنه يترك الأثر؛ إنه الوباء المعمم بالتقسيط المريح على البشرية جمعاء.. حيث نعيش تحت سلطة ديكتاتورية للإمبراطور كوفيد التاسع عشر الذي أحدث رُهابا غير مسبوق في النفس البشرية وزادت الآلة الإعلامية ووسائط التواصل الاجتماعي من هالته وسطوة رعبه، حتى أضحى مثل مديوزا تحول أعينها الأصحاء إلى مرضى والمرضى إلى موتى بلا طقوس جنائزية ولا قبر يترحم عليه الحزانى..

غدا فيروس كورونا المستجد وباء حقيقيا وليس مجرد كائن أسطوري قادم من هذا الشرق الأقصى الأسيوي، وبحكم سرعة زحفه في كل بلدان العالم، أصيبت البشرية بالذعر ولم يعد هناك ما يسيطر على تفكير صناع القرار غير حفظ البقاء والخروج بأقل الخسائر من هذه الجائحة، فقد شلت الدورة الاقتصادية وتعطلت أسس الحياة الاجتماعية، وأضحت الفضاءات الاجتماعية مهجورة، والشوارع العامة

يتيمة مثل أماكن خالية تحسسك بالذعر والتهديد المستمر، وانتقلنا من فضاءات الحركة والتنقل والسرعة، إلى حضارة الجمود والسكون، وهو ما جعلنا وجها لوجه مع صفاقة العالم ومع جوهر ذواتنا، نعيد تقييم أسس الوجود ومعناه..

«شيطان» كورونا يعيدنا إلى الخطيئة الأولى

لقد عصفت حرب كورونا المستجد بكل النظام القيمي الذي انتهجته البشرية إيمانا وفعلا، أو انقيادا وتبعية، كل منظومة القيم التي آمنا بنجاعتها والتي تتمحور أساسا حول كونية الديمقراطية وحرية السوق وخضوع الثانية للأولى، أصيبت بالشلل، وبشكل غير متوقع سادت العالم الكثير من الهلوسات والتفسيرات الشيطانية حول سبب فيروس كورونا المستجد، حتى في قلب قائدة العالم حيث تحدث الناس عن كون مصدر «كوفيد 19» هو هجوم مخلوقات فضائية زرعت الفيروس الجرثومي في الأرض.. وأضحى الهم الأساسي لنا اليوم هو الحفاظ على البقاء واستمرار الوجود.. ففي لحظات الأزمة تنتعش التفسيرات الخرافية والأسطورية إلى حين فقط!

إن توقف الدورة الاقتصادية وشلل الإنتاج وحظر التنقل ومنع التجوال ورسم حواجز بيننا وبين العالم.. حواجز أمنية أو وقائية مثل ارتداء الكمامة والتباعد الفيزيقي الذي تحول إلى تباعد اجتماعي جعلنا نفقد الثقة بنزاهة وحياة العالم الذي وقعنا في شرك الاطمئنان السعيد لقيمه، كما أن مرض التسوق الجهنمي جعلنا نخشى من الموت الحقيقي للأغراض والسلع والخدمات التي ظلت متراكمة على مرمى حجر منا، ونحن الذين كنا شهودا على صنعها وولادتها ورعاية مسار حياتها وموتها في آن، أو نخشى أن تبقى بعدنا فيما ننقرض نحن، وهو ما أعادنا إلى دائرة الخطيئة الأولى، فيما يشبه ثورة العالم علينا وعودة الشر إليه، كما الشيطان في

المحكيات القروسطية يقربنا من القيامة الآن ويؤثث جنازة الكون بشكل جماعي بلا طقوس ولا شعائر تليق بنا.. مشهد لافت ذاك الذي يبرز فيديوهات لحيوانات مختلفة شعرت بالاطمئنان في زمن الحجر الصحي وخرجت للتجول بحرية في الشوارع العامة، كيف تداول الناس على نطاق أوسع بهجة حياة باقي الكائنات أمام حزننا القاسي، وقد لفت انتباهي تعليق ساخر على صورة كلب امتد على أريكة في شاطئ أكادير، قائلا: «شوف ولد الكلبة كيف مكعشم، كيصحابليه انقرضنا!»

لذلك هرع الناس إلى الأسواق، وجففوها من كل المعروضات التي كانوا حتى أمس يصنعونها ويرسمون مسار حياتها وفنائها، وهم الذين تآلفوا مع هلوسات حكاياتها في الإعلانات الكاسحة التي هزمت كل مقاومة وحطمت أي مناعة لقدرة الإنسان على الصمود في وجه الرغبات الجامحة، وتساوت مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية في هذا الافتراس الوحشي الذي أعادنا إلى بدائيتنا الأولى.. اكتناز المؤن لدوائر الزمن الغادر، وعلينا أن نفهم اقتناء المستهلكين المذعورين من الجحيم لأكوام ورق «التواليت»، بلا وعي الإنسان الحديث للتطهر من كل الجرائم والآثام التي اقترفها في حق نفسه واتجاه محيطه، فيما يشبه محاولة منه للتخلص من الجلد المسحور الذي يطبق على الهيكل العظمي الذي هو صورة الموت كما يروي بلزاك في روايته الشهيرة «الجلد الحزين».

كيف انتقل العالم من قيم التبذير وارمه بعد الاستعمال، وذاك الاستعراض السحري الذي كانت تمارسه علينا المنتوجات والسلع بوفرة غير مسبوقة في تاريخ الجنس البشري، إلى عالم الندرة والخوف من الجوع والموت بالفيروس القاتل، وحتى ما توفر من مال لدى من لم يمسس الوباء أجرتهم أو مداخيلهم الشهرية بسوء، بحكم إغلاق جل محلات الاستهلاك الرفاهي: مقاهي، حانات ومطاعم وفنادق، والمحلات التجارية الكبرى موطن التبضع الزائد عن الحاجة، جعلت هذا

الكرم الحاتمي لعالم الوفرة بلا معنى، وغدت حتى الأوراق النقدية ذاتها مصدر رعب حقيقي لانتقال عدوى الفيروس القاتل، أضحت مثل وسخ الدنيا في استعادة لمحكيات آبائنا.

الانتقال من حضارة الخارج إلى حضارة الداخل

أصيبت النرجسيات والفردانية الإنسانية بجراح عميقة بسبب فيروس كورونا المستجد، فالحجر الصحي أعاد للفضاء الحميمي- البيت والأسرة- قيمته كمكان للعيش المشترك ودفئه الإنساني وحتى جحيمه لدى البعض أصبح ملاذا لا مفر من التكيف معه وخلق علاقات جديدة به، حيث سنميز منذ اليوم بين المفيد والضروري لبقاء الجنس البشري، والتافه والعابر مع نمط الاستهلاك الافتراسي.. استعادة الحميميات، الوعي بالمصير المشترك، وقفة تأمل مع الذات والوعي بإنتاج شروط جديدة للعيش، فقد دمر فيروس كورونا كل نظام التفاهة وسعار الاستهلاك الذي كنا نعيش أسيرين بين قضبانه باختيار أو وفق منطق الضرورة معتقدين أنه ملاذنا الأكبر للحرية واللذة.. وهو ما يمكن أن يعيد العالم المقلوب على قدميه لنرى له هيئة معقولة.

لقد بتنا نلعب لعبة القط والفأر مع فيروس غير مرئي أفسد الهواء من حولنا، بالأمس كنا نتسيد لوحدنا في الخارج، نطوع الطبيعة، نؤله الإنسان، وأصبحت الشوارع والمقاهي والحانات والمطاعم هي جوهر حضارتنا، حضارة الخارج وأمسى الداخل الإنساني أجوف مثل نفق مظلم، والوعي والهوية والتفكير في روح شرطنا الإنساني مغيبا، وها قد انقلبت الآية حيث أضحى الخارج محرما علينا، لأنه مصدر تهديد قاتل لوجودنا، يتسيد فيه فيروس كورونا والشرطة والموت، ها قد تعطل الجسد من الحركة والإنتاج واستهلاك السلع، ولم يعد لنا سوى جوهرنا الإنساني كمخلص من هذا الهباء الجائحي الذي ضرب المعمور.

فيروس كورونا يعيد السحر إلى قلب العالم وبضائع استهلاك الرفاه تفقد المعنى

«لقد أصبحت فلسفة عصر ما سخافة العصر الذي يليه،
وأصبحت حماقة البارحة حكمة الغد»

السير وليام أوزير

وسط كل هذه التراجيديا المعولمة التي خلقها فيروس كورونا المستجد، عاد السحر إلى قلب العالم، وسيحتاج العقل إلى مدة غير وجيزة ليتماثل إلى الشفاء من التنويم المغناطيسي الذي خضع له لعقود طويلة في ظل ليبرالية متوحشة نمطت الإنسان وفق سيلان الرأسمال، يقول جان بودريار: « لقد صار الاستهلاك أخلاق عالمنا، وهو يوشك على تحطيم مرتكزات الكائن البشري، أي التوازن الذي أقامه الفكر الأوربي منذ اليونان بين الجذور وعالم العقل»، أي بين الأسطورة والعقل.. لذلك عادت التفسيرات القيامية إلى العالم بشكل غير مسبوق، فلا غرابة أن تتناوب القنوات التلفزية على عرض أفلام نهاية العالم، واجتهد الدعاة وأشباه الفقهاء والرقاة الشرعيون في رفض ما فرضه الفيروس الكوروني من حجر صحي ومنع إقامة الصلاة في بيوت الله للضرر الذي يصيب الإنسان كما في أي اختلاط بشري، وبدأوا يبشرون بنهاية البشرية على نحو تراجيدي..

الفيروس التاجي بين الأسطرة والسحر

إن الاستهلاك الشره والمتوحش يجلب الشيطان الذي يغوي العباد عن أقوم سبيل، وهو ما يستوجب العقاب، فانتعشت محكيات الدجال الذي لبس لبوس فيروس

كوفيد 19.. في كل الأزمات الكبرى التي ألمت بالبشرية، كانت الأسطورة والخرافة والسحر والتمثلات الشعبية -لا أقول الدينية الحقة- تحقق إشباعا للاوعينا الجمعي، لكن ذلك لا يدوم طويلا، وبموجب الحكمة الإلاهية البليغة التي تتوجه دوما للذين يعقلون وأولي الألباب، فهل «يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» ذلك فضل الله يوتيه من شاءه خليفة له في الأرض.. سيعود العلم والمختبرات الطبية لاستعادة سيادتهما.

لا نملك أي طاقة خارقة لمجادلة الأساطير والأحاجي السحرية والغيبية التي ولدها الإحساس بالرعب مع جائحة كورونا وبلحظة فناء الوجود، إذ كما يقول العالم ماكس بلانك: «لا تنتصر الحقيقة العلمية الجديدة بإقناع خصومها وجعلهم يرون النور ولكنها بالأحرى تنتصر عندما يموت خصومها في النهاية وينمو جيل جديد معتاد عليها».

لعبة قلب السلحفاة على ظهرها لم تعد تجلب أي متعة

ستنهار اليوم كل اليقينيات التي أسندنا عليها اطمئناننا المطلق، من تأليه الإنسان والتشريع لسلطة الرأسمال العابر للقارات دون روح ولا أخلاق، فالعالم محكوم بأن يتخذ منعطفا آخر مع جائحة كورونا، لكن لا يقين جديد يمكن أن نعوض به ما هدمه الزلزال التاجي، فقد نؤول إلى عالم تضامني/تكافلي بعمق إنساني خارج التبادل الاقتصادي المعولم، وقد نسير نحو أنظمة أكثر استبدادية وذات طابع بوليسي وبهويات عمياء متوحشة، لكن ما أعتقد أن البشرية بدلت كل هذا الجهد العبقري الاستثنائي في تاريخها من أجل أن تدمر نفسها بفعل فيروس حقير..

كل ما نعرفه اليوم هو أن عالمنا لن يبقى على ذات الصورة التي عهدناه عليها من قبل: اقتصاد عولمي متبادل تحتل فيه السلع المادية مركز الصدارة، محلات الرفاه

الاقتصادي التي تحولت إلى محرابنا اليومي للتعبد، تسليط آلة جهنمية لتوجيه لا وعينا لاستهلاك حتى الذي ليس ضروريا لبقائنا، إعلانات تستبد بنظام حياتنا ترسخ الاستهلاك كركن أساسي في عاداتنا اليومية حتى حولتنا إلى رهائن بلا حس ولا إدراك، وتحولت بطائقنا الائتمانية إلى ما يشبه صكوك الغفران نشتري بها المتعة، الارتقاء الاجتماعي، السعادة المُشيئة، الموضة وباقي السلع ما يعيد لنا الفردوس المفقود، حتى فقدنا المعنى في أبسط التفاصيل الصغيرة في حياتنا، التي أصبح يقيم الشيطان في تفاصيلها كما يقول الفرنسيون..

لقد أنهى فيروس كورونا المستجد الكثير من الحكايات التي اجتهدت في أن تمسح من عقولنا كل المسار المؤلم للرأسمال، وأن تحول السلع من شرطها الاقتصادي والاجتماعي إلى متخيل لا نملك إلا طاعته، إلاه للعصر طاغي ومتجبر علينا الانصياع لاستهلاك كل ما هو معروض علينا بغبطة الحواريين المتهافتين على الفتات بدافع البركة وجاذبية سحر لا يقاوم ويعجز العقل المغيب عن فك طلاسيمه.. ونسينا الجوهر الفطري فينا.

كل هذا قد ينهار وكل المحكيات الإعلانية التي اجتهدت في خلق الحاجة لسلع لا نستهلكها بقدر ما نتباهى باقتنائها، وبضائع لا ضرورة بيولوجية تدفعنا لها، أصبحت بكماء.. لا إعلان اليوم إلا عن كيفية حفظ الصحة وسلامة الحياة، غريزة البقاء تدفعنا اليوم نحو التحذير من كل ما اعتدنا تداوله في معيشنا اليومي بقدسية، لقد انهارت فجأة كل الآلهة الحديثة تحت معول فيروس كورونا: نقود، بطاقات بنكية، شباك أوطوماتيمي، المنتوجات ذاتها التي ظلت تستعرض نفسها في الأسواق التجارية الكبرى أضحت ناقلة لعدوى فيروس كوفيد 19، لكن مقابل الكائن الافتراسي الذي ولدته فينا الليبرالية المتوحشة، نشهد ميلادا جديدا لروح الجماعة، التضامن، التكافل، وحدة الأسرة... وبالجملة روح الأخلاق التي زرعها الدين والفلسفة والشعر وباقي الفنون في قلب الإنسان.

على المستوى الكوني أغلقت كل الدول الحدود على نفسها لتواجه قدرها بناء على تفاعل عناصر المجموعة الوطنية، الدولة نفسها تخلت عن الكثير من غريزتها القمعية وأصبحت تتوجه إلى المواطنين بحس بيداغوجي/توعوي لتفهم الوضع والحفاظ على السلامة الصحية للكيان الوطني، وخرج كل أفراد السلطات العمومية نحو المواطنين بخطاب استجدائي يلتمس منهم البقاء في منازلهم واتباع شروط الوقاية الصحية التي فرضتها حالة الطوارئ الاستثنائية، بل إن وزير الداخلية قال بشكل صريح ونادر في خطابات المسؤولين المغاربة: «كلنا اليوم في سفينة واحدة، إما أن ننجو جميعا أو نغرق جميعا».. كما أن روح المشاركة الجماعية التي عبر عنها غالبية المجتمع المغربي بكافة شرائحه من خلال التضامن والتكافل الاجتماعي وروح البدل والعطاء والمساعدة الإنسانية والكرم الحاتمي للدولة غير المسبوق وفي عز أزمتها... قد تكون بداية لاستعادة الثقة بالمؤسسات وإذا ما نجحت الدولة في تدبير هذه الأزمة غير المسبوقة، فإن المغرب سيكسب جهاز دولة قوي يمثل مصالح كل المجموعة الوطنية وروح مشاركة جماعية عالية كانت تنقص المغرب ليتجه نحو إقلاع تنموي نموذجي يقيم الدولة الديمقراطية والتقدم المرجو حيث تصبح الجماعة مشاركة في الإنتاج والنقد والتقويم والمراقبة والمحاسبة بحس مواطنة عالية.

إننا بالفعل على عتبة تغير ملحمي في مسار البشرية قد يعيد الاعتبار لقيم العمل الجماعي من تضامن وتكافل وإيثار وتضحية والنموذج هو ما يقوم به ملائكة الرحمة، بدل التوجه القابيلي/النرجسي الذي شعاره: «أنا وبعدي الطوفان».. إن كان من فضيلة لفيروس كورونا على المستوى الكوني هو أن عالم الليبرالية المتوحشة الذي أقنع البشرية بعدالته القدرية، أصيب بجرح نرجسي.. فنحن على عتبة عالم جديد، لا نتوفر على عيون زرقاء اليمامة للتنبؤ بالشكل الذي سيكون عليه، لكن الأكيد اليوم أنه لن يبقى على نفس الوجه الافتراسي الذي كنا نسند رأسنا باطمئنان على وسادة كوابيسه الشيطانية.

«كوفيد التاسع عشر» يهزم النظام الدولي الجديد ويزعزع الثقة بقيمه

«إن كانت هناك خطورة في مسار الإنسانية، فإنها لا تكمن في بقاء نوعنا، بقدر ما تكمن في تحقق المفارقة الكبرى للتطور العضوي، وهي أنه في لحظة التوصل إلى فهم للذات من خلال عقل الإنسان، تكون الحياة قد حكمت بالهلاك على أجمل مخلوقاتها»

إي، أو، ولسن

ثمة مكر ما في العالم، هو أن الإنسان لا يصل إلى فهم ذاته والوعي بمحيطه إلا حين يكون على حافة الموت، ولا يكثر عطاؤه إلا حين يصل إلى الشيخوخة مثل النحل، محكوم عليه أن يموت بعد الإخصاب، الأمر لم يعد اليوم يتعلق بالإنسان كفرد، إذ تبدو الإنسانية كلها على حافة الانهيار الجماعي، وعلينا أن نعي جيدا ما عنته الصحافية إليزابيت كولبرت في كتابها «الانقراض السادس: تاريخ لا طبيعي»، إذ نبدو كمن يهدم البيت الذي يسكن فيه، أو يقطع الشجرة التي يستظل بها، نحن شهود على الكارثة، حتى أننا لا ندري أي عالم سنسلمه لأبنائنا وننام باطمئنان من أدوا رسالتهم على أكمل وجه، مستنيرين بحكمة خورخي لويس بورخيس: «على مدى مئات القرون لا تحدث الأشياء إلا في الحاضر».

بعيدا عن التفسيرات القيامية التي تنتعش في الكوارث والأزمات الكبرى، فإن هذه التراجيديا المعممة التي خلفها فيروس «كوفيد 19»، وضعت العالم وجها لوجه أمام المرآة، حيث بدا مثل مخلوق «فينغنشتاين» البشع، عاريا من كل ما يستر سوءته، كيف دمّرنا هذا الكون الأنيق، وجففنا منابع الجمال فيه باسم إسعاد البشرية، وخلقنا كل هذا الاختلاف في الرزق المجحف والغير طبيعي، ففي الوقت الذي تساوي فيه ثروة

رجل غني من حجم بيل غيتس القيمة الإجمالية لثروات 106 ملايين من الفقراء الأمريكيين، وتبلغ قيمة ثروة 15 فردا الأكثر ثراء في العالم كل الثروة الإجمالية لمجموع دول إفريقيا، فإننا أمام أثرياء أصبحوا ليس فقط أغنى من الدول بل أغنى من قارة بأتمها.. وها هو فيروس كورونا يكشف نظاما تسيّد فيه المال مدعوما بقوة تكنولوجية، عسكرية، اقتصادية وإعلامية.. لم تهتم سوى بالبحث العلمي الذي يهم تكييف سلوكات الإنسان المعولم مع حاجيات النافذين الكبار من سادة العالم المتحكمين في رقاب البشرية: إنتاجا وتسويقا، نهبا واستنزافا، وحين جاءت جائحة كورونا أسقطت كل نظامها الأخلاقي حول المساواة والعدالة، والقيم الكونية لحقوق الإنسان.. ويكشف انتشار الفيروس الفتاك وتفقيصه في حضن الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، أن أغلب مخصصاتها للبحث العلمي كان يوجه وفق رغبات الشركات الكبرى، نحو تدمير الإنسان وخلق الجراثيم الخبيثة بدل ابتكار الأدوية المضادة لها.. ومن مفارقات هذا النظام المجحف أنه في الوقت الذي يموت الملايين من الجوع ومن أمراض حقيرة، يموت أغلب الأمريكيين من فرط السمنة أو من المغامرة في تجريب واكتشاف متعة حواس أخرى غير الحواس المشبعة حد التخمة!

ليس فيروس كورونا غير جائحة كما الطاعون والكوليرا والتيفويد الذي كان يفني نصف عدد سكان أوروبا في القرون الماضية، لكن أثره على النظام القيمي والأخلاقي أقوى بكثير مما سيحصده من أرواح، وهو شيء لم يكن أحد قادرا على التنبؤ به حتى بيير بورديو الذي قال: «تشكل الليبرالية الجديدة سلاحا لضمان النصر، فهي تعلن عن قدرية اقتصادية لا تنفع في اعتراضها أية مقاومة، لأنها مثل السيدا تدمر جهاز المناعة في ضحاياها»..

إذا لم تحم المناعة الذاتية للقوى العظمى نفسها من وباء كورونا المستجد، سيكون من باب القذارة الإنسانية التشفي بما يحدث في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا

وألمانيا وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية، فلا يتعلق الأمر أبدا بدار الكفر أو الحرب، وإنما بعالم غير متوازن نشهد انهياراته بكل أسى، بكل هذه الكينونة الجميلة التي عشنا على الأقل كمتفرجين على ملذاتها، إذا لم نستطع إلى ذلك سبيلا، نحن الذين لا زالت تحصد أرواحنا أمراض الحصباء (بوحمرون)، السل، المينانجيت، السعال الديكي، الجوع والبرد والداء الأكبر الفقر..

لقد وصل النظام العالمي الجديد إلى الباب المسدود، وعرّى كورونا ـ بعد حرب الخليج الثانية وما تلاها ـ آخر أوراق التوت عن طابعه الوحشي وغير الإنساني، لأنه بدأ يأكل ذيله كما جسد ذلك الفيلم الأمريكي الرائع «wag the dog» (يهز الكلب ذيله)، أكيد أن الكون لن يصبح كما كان عليه الأمر قبل فيروس كورونا، لكن سيكون بلا مذاق ولا طعم إذا لم يستعد تلك الأخلاق الكبرى المؤسسة لروح الكون ولم يع تحذير جان جاك روسو حين قال: «سوف تضيع إذا نسيت أن الثمار للجميع والأرض ليست لأحد»، فشعار: «دعه يعمل، دعه يمر»، تحول إلى: «دعه يحتكر، دعه يملك الكل»، فيما يشبه خوصصة هذا الكون الذي زحزح فيروس كورونا كل ثقتنا بأسسه الأخلاقية التي بني عليها.

الوباء ينعش تجار المآسي .. و «الكورونوفوبيا» أخطر من الفيروس

«إذا كنا قد شهدنا، باحتفالية صاخبة، نهاية التاريخ، فعلينا الآن أن نعد لقداس جنائزي آخر: إن الجغرافيات تدنو من النهاية»

الباحث المستقبلي الأمريكي هاري جونستون

يروي الراهب الهندي والكاهن اليسوعي أنتوني دي ميللو حكاية رمزية مؤداها، أن الطاعون كان في طريقه إلى مدينة دمشق، فالتقى أثناء عبوره بالصحراء قافلة، سأله قائدها: «لم العجلة؟ إلى أين تمضي هكذا مسرعا؟»، فأجابه الطاعون: «إلى دمشق، أنوي القبض على حياة ألف شخص».. وأثناء رجوعه من «مهمته» التقى الطاعون بذات القافلة، بعد أن كان قد داع ما فعله من كوارث بالشام، فقال له قائدها مستنكرا: «لقد أخذت حياة 50 ألف شخص، وليس فقط ألفا كما ادعيت»، لكن الطاعون أجاب بيقين المخلص الملتزم بكلمته: «لا أبدا، أخذت فقط روح ألف ضحية، ولكن الرعب والفزع هو من حصد الباقي!»

كذلك هو الشأن فيما يجتاح المغرب كجزء من العالم اليوم جراء سرعة انتشار فيروس كورونا المستجد، فبرغم الأداء التواصلي الجيد حتى اليوم للجهات الرسمية، التي لم تخف حتى خبر إصابة عضو من الحكومة بوباء كورونا، وهو ما حد من خطر الإشاعات التي لا تتأخر عن ملء الفراغ، مع ذلك هناك من يجتهد في استخراج أرقام مخيفة من وحي خياله المريض، وللأسف فالأخبار السيئة دوما تعبر بسرعة كما يقول المثل الإنجليزي.. لحد الآن توفيت ضحيتان- رحمة الله عليهما- من أصل61 حالة المعلن عنها حتى زوال اليوم الخميس، وليس استرخاصا

بأرواح العباد لنقول إن الرقم حتى اليوم غير مخيف، إذ أن ما تحصده حرب الطرق بيننا يوميا يتجاوز بكثير هذا الرقم خلال ثلاثة أشهر من انتشار فيروس كورونا المستجد، وهذا لا يدعو للاستهتار واللامبالاة، فالوباء حقيقي وخطره قائم، لكن هناك ما هو أخطر على المغاربة من فيروس كورونا، إنه الأخبار الزائفة والشائعات التي تخلق هالة من الفزع والرعب الأشد فتكا، كما الطاعون في حكاية المفكر أنتوني دي ميللو الذي لم يقتل سوى ألف شخص، لكن الخوف والفزع الذي انتشر بين الناس هو الذي قتل 49 ألفا منهم!

فنحن في حالة حرب ضد فيروس قاتل، ويفترض أن نكون سندا لهؤلاء الجيوش الموجودين في فوهة الخطر من أطباء وممرضين مدنيين وعسكريين ومن نساء ورجال الوقاية المدنية والجمارك والدرك والأمن والجيش وصيادلة... وكل عبث بنشر أخبار زائفة هو مساهمة في إضعاف وتقويض معنويات هذا الجيش، يفرض إعمال القانون وتنزيل العقاب، وأن يتقي اللّه أصحاب «الضحك الخايب» والمستهترون بالبلاد والعباد ويكفوا عن نشر أي كلام بلا سند، بادعاء وقائع زائفة أو تحوير وقائع حقيقية بكلام مغلوط يشوه الحقائق ويخلق الفزع في الناس ويروعهم، فهذا أكبر خطر من الجائحة التي ساوت في ضربها العالم كله، وستمر كما مرت المجاعات وباقي الأوبئة وبأقل الخسائر متى ما اتخذنا الحيطة اللازمة وتخلينا عن العبث والاستهتار.

فما شاهدناه خلال هذا الأسبوع من سعار محموم للتسوق وتخزين المؤونة بشكل زائد عن الحاجة تحسبا للطوارئ بناء على خبر زائف يتحدث عن حظر التجول وإغلاق الأسواق، لا يدل على سلوك مدني بيننا كمغاربة، لقد صرح السفير الصيني بالمغرب، أنهم تغلبوا على فيروس كورونا بالتضامن والتعاون وبروح جماعية، من هنا فالمغرب كما باقي دول العالم في حالة حرب حقيقية مع فيروس قاتل خفي، يترك الأثر فقط، ومسؤولية الحد من خسائره على المملكة ليست مسؤولية الدولة

وحدها، بل هي مسؤولية المغاربة أجمعين، فأن يقصد البعض الأسواق الكبرى لمجرد أن توفرت لهم إمكانية ذلك لتجفيفها وتخزين بضائعها حتى فوق الحاجة إليها، سيلهب الأسعار وينشط الوسطاء والمضاربين وتجار الأزمات..

علينا في وسط هذه المأساة البشرية أن نلتفت إلى جوهرنا الإنساني، لذلك نعتز بمساهمة قطاعات عديدة من المجتمع في صندوق كورونا الذي أمر الملك بإحداثه لمواجهة وتدبير أزمة هذا الفيروس القاتل، وبتطوع رأسماليين كبار والعمال والولاة والحكومة والبرلمان والقضاة وكافة موظفي الدولة والخواص ومجموع المتبرعين حتى من ذوي الدخل المحدود في مجموع ربوع المملكة، هو عنوان لجبهة أمة في مواجهة عدو كورونا، مواجهة بروح الفضيلة والتضامن ونكران الذات والتضحية في زمن الكارثة، لذا أعتبر بيان رابطة التعليم الخاص لاستجداء دعم صندوق كورونا في هذه الظرفية الاستثنائية، صوتا نشازا على اعتبار أنه القطاع الأقل تضررا من السياحة والنقل ووكالات الأسفار، والعمال الموسميين والمياومين الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة البطالة، والمقاهي والمطاعم الصغرى التي أغلقت أبوابها وجيش من المعطلين فقدوا مهنهم التي يكسبون منها قوتهم اليومي، فبالأحرى بقطاع لا يستثمر فيه إلا بميسوري الحال وبأقل كلفة، وهم أقل تضررا.

وعلينا أن نحيي أيضا جنود الظل في المدن والحواضر، كما في المداشر والقرى الذين يقومون بعمل جبار لمساعدة الناس وتوعيتهم بدون ضجيج إعلامي، بهؤلاء يمكن أن نواجه هذه الجائحة الخطيرة، بالبعد الاحترازي الاستباقي، بالتضامن الإنساني بلا حدود هو ما سيجعلنا جبهة واحدة ضد كورونا القاتل، في معركة غير متكافئة مع فيروس بلا وجه ليبرز لنا في ساحة المبارزة بقيم الفرسان النبلاء، لذلك فليخرس الدجالون والمشعودون ومن لهم فهمهم المتخلف ل«قل ما يصيبنا إلا ما قدر الله لنا» دون أن يعلموا حكمة عمر بن الخطاب الذي قال أيام الطاعون: «إني هارب من قدر الله إلى قدر الله»، والذين يرون في الوباء المنتشر عقابا إلاهيا..

علينا أن نكون حذرين من تصديق كل ما ينشر ونساهم في ترويجه حول وباء كورونا، فذلك يمكن أن يقتل العديدين منا ليس بسبب الفيروس ولكن برُهاب الخوف والفزع، ذلك أن الفتنة أشد من القتل.

«لا يمكن أن يكون الموت صعباً، فحتى الآن لم يفشل فيه أحد» كما يقول الكاتب نورمان ميلر، لكن الصعب هو أن يموت الناس بأسباب خلق حالة من الفزع والتهويل وترويج الأخبار الكاذبة، في لحظات الأزمة، وحدة أمة وصدق المجموعة الوطنية بحس تضامني فعال هو ما يحد من الخسائر، لقد مررنا من جوائح كثيرة كان بعضها يقضي على نصف ساكنة المملكة، واستمر المغاربة واستمرت الحياة.. وهنا الاختبار الأكبر لصمود دولة بمؤسساتها المختلفة، ووعي مواطنين متضامين في جبهة واحدة لهزم كورونا القاهر.

هكذا أصبحت الكمامات رمزا مكثفا لعصرنا يخفي تحته طبقات من الأساطير والرموز

«سكت الدهر زمانا عنهم ثم أبكاهم دما حين نطق»

المعتمد بن عباد

«سكينة، اطمئنان، وعلى الوجه قناع مبتسم لا يتحرك، أما ما يجري وراء القناع فهذا من شأننا»

عن رواية «زوربا»

ها قد أصبح العالم كله مقنعا.. أينما وليت وجهك ثمة أقنعة صحية تحجب الجزء الأكبر من وجهنا، تحولت الكمامات إلى هوية كونية لعصرنا ملتصقة بجلد وجهنا، وليست مادة معزولة عنا نشهد على ميلادها وموتها بحياد، في عز احتفاء الإنسان ب«الأنا» يضطر لإخفاء ذاته وهو ما يعني أن الفيروس التاجي قد وشم جسدنا ونفوسنا، فيما يشبه الجرح النرجسي.. واقتضاء بما أورده الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس في كتابه «طريق الأقنعة»، فإن الكمامات ستغدو أسطورة عصرنا الجديد، ستخفي تحت طياتها طبقات كثيفة من الحكايات والأسرار والتمثلات التي سيأتي بعدنا من يشرح عبرها زمننا، وما يخفيه القناع الصحي الذي نرتديه اليوم بسبب فيروس كوفيد 19 من خوف ورعب وقلق وتمويه، وكيف انتصبت الحواجز بين البشر بسبب رهاب عدوى فيروس غامض ومخاتل هزمنا أكثر مما فعل الموت الطبيعي والزلازل والبراكين.. كائن مجهري يستقر على الأسطح الصلبة، ينتقل عبر الهواء مع رذاذ الأفراد المصابين، لا نعرف عنه الكثير سوى أنه جعلنا نكف عن الثرثرة ونرتدي أقنعة مثل المهرجين وسرّاق المنازل ولصوص البنوك، والمشاركين

في الحفلات التنكرية الباذخة، والممثلين القدامى والمحاربين الذين كانوا يرتدون أقنعة حيوانات شرسة لإرهاب عدوهم..

الكمامة.. ال«بيرسونا» المزدوج لكل وجه منا

هذه المستطيلات القماشية البيضاء والزرقاء، والتي ستصبح بألوان زاهية مع انتهازية شركات الموضة، جعلتنا مثل طائر البجع المتكتم كما في الثقافة الإنجليزية أو الكلاب الشرسة أو الدواب المكممة كما في الثقافة العربية، أصبحت لصيقة بنا، هي وشم عصرنا الكوروني.. بعد أن أغرقنا العالم بثرثرتنا الزائدة عن اللزوم، ها هو فيروس مجهول المنشأ وغير مرئي يخرس البشرية.. كأن الكون كله يخاطب الإنسان اليوم: اصمت لأراك!

لقد أصبحنا بوجه مركب، الوجه المزيف «بيرسونا» الذي نظّر له كارل يونغ مؤسس علم النفس التحليلي على اعتبار أن كل شخص يرتدي قناعا مخاتلا يبرز به أمام المجتمع لإخفاء وجهه الحقيقي وشخصيته الطبيعية، وأن عدم التوافق بين القناع الفردي والمجتمع هو مصدر كل الاختلالات النفسية، وها نحن نرتدي قناعا قماشيا فوق قناع نفسي وعلينا تصور حرب ضروس بين القناعين!

أصبحنا «بيرسونا» مركبة أو مزدوجة.. نسير في الساحات العامة بقناعين، القناع النفسي الذي وصفه بدقة العالم كارل يونغ وكمامة الوجه التي صهرها فيروس كورونا المستجد وصاغها على مقاسات وجوهنا، غير أن الوجه الأول طبيعي وجزء من ذاتنا، نقدم نسخة مبالغ فيها عن أنفسنا ونأمل أن يكون لها انطباع جيد عند الآخرين.. الشخصية التي نعرضها في مهنتنا ليست هي نفسها في المنزل.. في الأماكن العامة نرتدي قناعًا نفسيا، حتى نتمكن من فرض صورة مرغوبة لأنفسنا عند الآخرين.. ومن ثم، فإن الغرض المميز للشخص هو إخضاع كل الحوافز

والاندفاعات والعواطف البدائية التي لا تعتبر مقبولة اجتماعيًا، والتي إذا خضعنا لها سنصبح مثل حمقى، وكل منا يشارك في التظاهر بأن كل هذا حقيقي ليستمر المجتمع على وجه عادي.. فيما الوجه الثاني، الكمامة أو القناع الصحي هو إجباري لا حرية في اختيار هذا الوجه المزيف، القلق، المرتاب.. هكذا غدونا بقناع مزدوج أو مركب، من سيتضخم على حساب الآخر: القناع النفسي أم القناع الصحي الذي أخذ يبدو اليوم أنه جزء من جسدنا الاجتماعي؟ رمزً مشحونً بالدلالات والإيماءات، قطعة لا مندوحة عنها مضافة إلى باقي أكسيسوارات لباسنا..

كلنا اليوم أشبه ببطلي «بيرسونا»(Persona) الفيلم السويدي للمخرج إنغمار برغمان، حيث زيف الأقنعة التي نرتديها لكي نُسعد من حولنا، ونظهر بمظهر اجتماعي مميز حتى يرضى الجميع عن كينونتنا، اليوم ستقيم الكمامات حواجز بيننا وبين الآخرين، وسوف نضطر لتغيير الكثير من سلوكاتنا وقيمنا وفق ما يفرضه القناع الجديد لوجهنا.

سقط القناع عن القناع، سقط القناع

القناع هوية مضللة، كما في المسرح والحروب لدى الفرسان الملثمين أو اللصوص وزوار الليل من البوليس السري في الدول القمعية، الذي يختطف المعارضين قبل صعود الفجر، «بوخنشة» الذي كانت ترهبنا به أمهاتنا لننام ونكف عن شغب الطفولة، القناع دفن لهوية واستنبات لأخرى جديدة، غامضة، مثيرة وكاذبة، يخلق اليوم التشابه والتماثل بين جميع الممثلين في العالم، لكنه يثير القلق والفزع والارتياب، حتى ولو ارتبط بالقناع الصحي لدى الأطباء في قاعات الجراحة.. يزرع فينا خوفا ملتبسا، ينشر من حولنا الرعب ورائحة الموت، لأنه رديف المجهول والغامض فينا.

منذ انتشار فيروس كورونا المستجد في آسيا وانتقاله إلى باقي أرجاء المعمور، أصبحت الكمامة نوعا من السلاح الضروري لمواجهة انتقال العدوى، منصوص على إلزامية ارتدائها قانونيا ويتعرض المخالفون إلى العقاب، بالغرامة أو السجن.. كيف يصبح التجلي والوضوح والبروز بوجه مكشوف رمزا للتهديد وتعريض الذات والآخرين إلى خطر الإصابة بالفيروس التاجي؟

في الأعراس والحفلات، في المآدب والمآتم، في الصالونات وفي المنتزهات، في المطاعم والمقاهي، في المتاجر والأسواق، في المسابح والشواطئ، في مكاتب العمل وفي الشوارع العامة... هناك سطوة كبرى لأقنعة الوجه الصحية، حتى لنبدو كممثلين جدد على خشبة مسرح الحياة، كل له دور في هذه المسرحية التراجيكوميدية من تأليف فيروس مجهري وإخراج صنّاع السياسات العمومية.. في الصحف السيارة كما في التلفزيونات ومواقع التواصل لا صور مجردة من القناع الصحي، صور تحاكي الواقع وتقول زمنها، الكل يبرز في صور مكممة.. تلك عدالة فيروس إمبراطوري فرض شروطه على البشرية التي أصبحت تتخفى وراء الأقنعة، ففيروس غير مرئي لا يبرز إلا من خلال أثر عدواه يستلزم الأقنعة المكشوفة لحماية المرء من مرض لا نعلم إن كنا مصابين به أم لا إلا بعد حين..

لا شيء يعلو على رمزية الكمامة التي تختزل الرغبة في الحفاظ على الحياة ونزعها مغامرة ومخاطرة وجهل مبين.. نحن الذين كنا بالأمس «نخرج أعيننا» بوقاحة زائدة في العالم، لنؤكد تفوق الجنس البشري وإخضاعه للطبيعة التي كيّفها وفق حاجاته من أجل إسعاده، فإذا بفيروس هشّ، مجهوله أكثر من معلومه، يكشر عن أنيابه ليعيدنا إلى زمن الأقنعة الدينية والطقوس الأسطورية، ويدفعنا إلى الاختباء والتنكر وسط قطعة قماش.. فيروس غير مرئي يبرز عدم قدرتنا على حماية أنفسنا، حيث أصبح العالم مصدر تهديد مستمر لنا، لذلك اختبأنا طويلا في جحورنا أثناء الحجر الصحي لحوالي ثلاثة أشهر.. والآخر حتى من المقربين، متى

اتصل بالعالم الخارجي أصبح بدوره مصدر تهديد لنا يثير الفزع والخوف ونشم فيه رائحة الموت.. مما يدفعنا لإقامة الحواجز بيننا وبينه عبر الكمامات!

قناع الوجه كهوية إبداعية وطقوس دينية.. من التضليل إلى الخوف

هناك العديد من الأقنعة الشائعة حول العالم التي يمكن تصنيفها حسب معايير مختلفة.. يمكن استخدام الأقنعة في الطقوس والاحتفالات والصيد والأعياد والحروب والكرنفالات والمواسم والمسارح والأزياء والرياضة والأفلام، وكذلك في الأغراض الطبية أو الوقائية أو المهنية.. يمكن أيضًا استخدام الأقنعة كنوع من الزخرفة... هناك العديد من الأقنعة حول العالم تختلف بحسب وظائفها.

يحيل النص الديني إلى أن نبي الله يوسف وضع قناعا فرعونيا مذهبا على وجهه حين تنكر كي لا يتعرف عليه إخوته إذ جاء في «سفر التكوين»: «ولما نظر يوسف إخوته عرفهم، فتنكر لهم وقال لهم: من أين جئتم؟».. وورد في القرآن الكريم: «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون».. أي أنه نتيجة لقناع الوجه الذي كان يرتديه متنكرا لم يتمكنوا من التعرف عليه، الوظيفة الأولى لقناع الوجه هي التنكر، التخفي، الغموض والتمويه والالتباس..

وقد ازدهرت الأقنعة مع الطقوس الدينية/الطوطمية ومع المحاربين الذين كانوا يرتدون جلود ورؤوس حيوانات شرسة لبث الرعب في صفوف أعدائهم، وأصبح لها صناع وحرفيون.. كان القناع رسالة محملة بالإيحاءات الدينية كرمز للأسلاف وتقديسهم، في كتاب «الموتى» الفرعوني يوجد فصل خاص اسمه «القناع» (الفصل 151) يتحدث عن القناع الجنائزى الذي ترتبط وظيفته بفكرة الكا(القرين) والبا(الروح) أي قرين الروح وصنوها، لذلك ارتبط القناع بالبعث والخلود، وظل

المصريون القدامى يعتقدون أن القناع يوفر الحماية لرأس الميت، وكان صناع الأقنعة يجتهدون في إبداع أيقونة القناع التي يجب أن تكون شبيهة بوجه المتوفى حتى يسهل على روحه التعرف عليه في العالم الآخر حيث الخلود الأبدي، لتتعرف الروح على جسد صاحبها من خلال تحري ملامحه المتفردة، ومن خلال المومياءات التي تم اكتشافها وجدنا الأقنعة التي كانت ترتديها الجثث المحنطة مناسبة للوضع الطبقي الذي كان عليه الميت في الحياة، ها هنا لا يحمل القناع وظيفة حماية رأس الميت فقط بل يحافظ على وضعه الطبقي أيضا، وفي حالات أخرى كان يتم صنع أقنعة مضللة عبر تحويل وجه الميت وشخصيته الحقيقية إلى شخصية مناسبة للقناع الحيواني الذي يتم صنعه وذلك بغية طرد الأرواح الشريرة، حيث يمنح القناع حياة أخرى أو شخصية ثانية لوجه الجثة، تسمح بإقامة حواجز مع العالم الخارجي، تخفي حقيقتها حتى لا تتمكن الأرواح الشريرة والكائنات الغريبة من التعرف عليه، القناع هنا حافظ للشخص الحقيقي حتى وهو ميت من أي عبث، مضلل ومراوغ يخفي حقيقة الميت وشخصية جثته الحقيقية..

في الحضارات القديمة بأمريكا الشمالية هناك عمال خشب ماهرون أبدعوا في صناعة أقنعة معقدة من الخشب والجلد والعظام والريش... كما تم استخدام الأقنعة في الطقوس الشامانية التي تمثل الوحدة بين الإنسان وأجداده والحيوانات التي يصطادها، كما أنها تستخدم في طرد الأرواح الشريرة من المرضى.. في أمريكا اللاتينية كانت الأقنعة تجسيدا للأسلاف واستجداء حضورهم من قلب الماضي أو تستعمل للحماية من الأرواح الشريرة.. ووظف الأزتيك القدامى أقنعة لتغطية وجوه الموتى، صنعوها من الجلد في البداية ثم من النحاس والذهب.

إننا اليوم على طريق صنع أسطورتنا الخاصة، سيأتي بعدنا من يكشف الرمز المشحون بالدلالات للقناع الصحي في عصرنا الكوروني وما يخفيه من طبقات كثيفة من الأساطير الحديثة.. كل منا أصبح أورفيوس عاشق حورية الغابة الفاتنة

يوريدس التي ماتت من لدغة أفعى، نتزل إلى العالم السفلي، متخفين بأقنعتنا عن وجه الموت، بحثا عما فقدناه في مسارنا عبورنا الطويل للحياة: صدقنا، حبنا، براءتنا وهويتنا التي توارت تحت أقنعة عديدة، وحين نجدها نفقدها، كما فقد أورفيوس معشوقته يوريدس وهو يعبر الأدراج الأخيرة لعالم الموتى، كما أضاع جلجامش عشبة الخلود.. ها هو الفناء يطاردنا ونحن نتقنّع بالكمامات لمراوغته وتضليله وسيكون علينا فيما بعد أن نعاني من تصدعات القناع الجديد الذي فرضه فيروس كورونا، وأن يكشف علم النفس وعلم الاجتماع جراح القناع الصحي على هويتنا وروحنا، والعزلة العميقة التي ستدخلنا قوقعة نفسنا بسبب التباعد الاجتماعي والكمامات التي تقوم حاجزا بيننا في التعرف على بعضنا وقراءة انفعالات بعضنا من خلال قسمات وجوههم وإيماءاتهم.

الوجه والأنف من التجميل إلى التكميم!

حازت العين مركز التعبير الإنساني في جل الثقافات الإنسانية، وأحيطت جارحة العين بدلالات الرؤية والبصيرة والعلم والمنبع الأصيل وإردافها كصفة كان يمنح الشيء هويته الخاصة المميزة، به يعرف ويحدد.. الشيء عينه والشخص عينه، وظلت المجتمعات القديمة تعلي من شأن العين باعتبارها مركز ثقل التعبير الوجداني، حتى اختزلت تاريخا باذخا من التعبيرات والرموز والمشاعر المتناقضة: من حب وكراهية، خوف وشجاعة، فرح وحزن، دعوة وصد، استهجان واستحسان.. كان ابن جني يردد: «أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة»، لأن الكلام في غياب مشاهدة الوجوه مضلل، لا يقود إلى ما في النفس حقيقة، ويشرح مهدي عرار في كتابه «مقدمة حول البيان بلا لسان: دراسة في لغة الجسد» هذا الأمر قائلا: «يأبى ابن جني أن يكون استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين، مجزئا عنه»، وفي الحياة الجارية حين نريد التحقق من صدق أو كذب محدثنا، نقول له: «انظر إلي بعينيك

وأنت تخاطبني»، وقال الشاعر العراقي أبو الفوارس:

العَيْنُ تُبْدي الذي في قَلْبِ صاحبِها ... مِن الشَّناءَةِ أوْ حُبٍّ إذا كانا

إنَّ البَغيضَ لهُ عينٌ تُكَشِّفُهُ ... لا تَسْتطيعُ لما في القلْبِ كِتْمانا

فالعينُ تَنْطِقُ والأفْواهُ صامِتَةٌ ... حتى تَرى مِنْ ضَميرِ القلبِ تِبْيانا

للعين دلالة الحضور، الهوية، الرؤية، الحقيقة... فليس من سمع كمن رأى وليس المخبر كالمعاين، هي مجال للسحر والحسد وفتنة للناظرين لم تستطيع جل الأقنعة حجبها، لأن بها نكون، هي مركز سهام العشق والجنون والحياة والموت.. لكن مع ظهور الصورة الفوتوغرافية وبعد هيمنة المرئي على الثقافة الكونية، عاد للوجه والأنف جماليتهما الخاصة، لقد بدل الإغراء مجاله، من الجزء الأعلى- العين والحاجب إلى الجزء السفلي- الفم والأنف، وازدهرت الجراحة التجميلية في إضفاء لمسات إبداعية على المظهر الطبيعي للفم والأنف، لكن فيروس كورونا المستجد سيفرض على البشرية الكمامة لإخفاء مجال السحر المعاصر، تقول الصحافية البريطانية فانيسا فريدمان في مقال لها بجريدة «نايتايمز» في 17 مارس 2020: «إننا نعزو الكثير من المعنى إلى الوجه البشري وتعابيره، لتغطية وإخفاء الجزء الأكثر عراقة.. دائمًا يتم الحديث عن العيون بكونها نافذة على الروح والكثير من الثرثرة في هذا الموضوع، لكن الفم هو دليل مهم للعواطف.. إنه جزء من كيفية قراءة مشاعر بعضنا البعض. إخفاء ذلك يمكن أن يبدو وكأنه توبيخ... القناع يخلق حاجزًا بينك وبين العالم، إنه يحميك ولكنه يعني أيضًا أنه لا يمكنك الاقتراب من شخص ما»، ويقول دانيال ماكنيل في كتابه «الوجه»: «إن بريق أفكارنا يشرق على وجوهنا تماما مثل الفراشات وهي فوق الزهور.. فذلك البريق على الوجوه يمدنا بتدفق من المعلومات عن شخصياتنا لا يكاد يقدر بثمن».

حين ظهرت الكمامة كقناع إلزامي للوجه، واجهت المشاهير والنجوم ومن اهتموا بصرف الملايين على تزيين هذا الجزء السفلي من الوجه، سخرية لاذعة من طرف الجمهور، على اعتبار أن الكمامة البخسة الثمن ستخفي الفم والأنف والخدود الذين صرفت في سبيل تزيينهم الملايين.. لتعود للعيون سلطتها وسيادتها، وتستعيد إيحاءاتها الباذخة.. وقد اكتشفنا لحظة الحجر الصحي مع إغلاق محلات التجميل والصالونات، أن العديد من النساء كن لا يحببن الظهور عبر الفيديو في العديد من الندوات الرقمية، لقد افتقدن لقناع الماكياج الذي كان يجعلهن أكثر ثقة بأنفسهن، وجاذبية وإغراء في نظر المجتمع.

كلما استوطن الفيروس التاجي كوكبنا، انتقل الفم والأنف من التجميل إلى التكميم، وأصبحا معا دليل انفصال لا اتصال مع الآخرين والعالم، فالكمامة هنا تخفي، تحمي وتحجبنا عن بعضنا البعض، بدونها نبدو كما الآخرين مصدر تهديد قائم، لم يعد الأنف والفم مجالا للزينة، وإظهار المشاعر مهما اجتهدت دور الموضة في تزيين الكمامات وترصيعها، لأنها في نهاية المطاف قناع يقف حاجزا بيننا وبين الآخرين وبين العالم، وستصبح العين مرة أخرى مركز الإشارات والعواطف وقطب تعبيرات الوجه، بوصفها الجارحة التي لا يمكن حجبها حتى وسط التشادور والنقاب.

الكمامة هوية حيوانية: الصمت والمسوخ والإذاية

في المتخيل العربي تشكل الكمامة التي تغطي الأنف والفم خاصة رمزا للنجاة.. لكي لا تدخل فمك «جمرة» بدل «الثمرة»، تجسيد لبعد حيواني، علاّفة البغال والحمير، كمامة الكلاب الشرسة، وقد صادفت شيوخا يلجون محلات تجارية رفضوا أن يرتدوا الكمامة بالشكل السليم على فمهم ووجههم، وكانوا يردون على العاملين

المكلفين بمداخل المتاجر: «أنا ماشي بهيمة، ندير الكمامة»، وبعضهم فضل عدم دخول المحل التجاري على ارتداء الكمامة التي كانت تحيط عنقه، لقد أصبحنا «بيتبولا» بشريا، بهائم غير مروضة ما أن تفتح فمها حتى تعض، تؤذي.. من خلال الرداد المتطاير الناقل للفيروس المعدي، كيف نقل الفيروس التاجي الكمامة من الحيواني إلى الإنسي؟

من جهة أخرى، أضحت الكمامة أداة السلطة لترويض غير المنصاعين لتعليمات التدابير الاحترازية، لذلك فإن الكثيرين لا يرتدون الكمامة بشكل سليم إلا حين يرون رجال السلطة وأمام الحواجز الأمنية وفي الإدارات الرسمية، «البوليس، البوليس، ديروا الكمامة»، ينبه الناس بعضهم البعض، وما أن يجتازوا الحواجز وتختفي السلطة حتى يُعيدوا القناع الصحي إلى سابق وضعه، إن الكمامة هنا مثل اللجام أو كمامة الدواب والكلاب الشرسة، محاولة لتطويع الأشخاص غير الخاضعين لسلطة القانون تحت مبرر الحماية الصحية، لا مجال هنا كما في انجلترا وأمريكا للحديث عن الحريات الشخصية، لا، أبدا.. فعدم ارتداء الكمامة يوازي الخروج عن الجموع، التمرد وعدم الانصياع.. إنه خروج الآدمي إلى الحيواني الذي يجب ترويضه ليعود لحالة الطبيعة الاجتماعية.

الكمامة كرمز للاحتجاج وثورية الوجه المقنع

انطلق القناع مع المسرح ومع الطقوس الدينية والطوطمية، كانت الأقنعة وسيلة الممثلين للخروج من ذواتهم وتجسيد الأدوار التي يتقمصونها أمام الجمهور، وبتأمل لباس المحاربين القدامى والملوك وأقنعة الحفلات التنكرية وأقنعة مبسطي البلاطات ومهرجي العامة، والماسكات التي كان يرتديها الاستعراضيون في الكرنفالات والمواسم الدينية، وتلك التي ارتبطت بشخصيات مشهورة مثل الفارس

زورو، الكونتيسة عائشة أو الرجل ذي القناع الحديدي كما في رواية ألكسندر دوماس، نجد الأقنعة تجسيدا لأدوار مجتمعية تحمل معاني: البطولة، التمثيل، التهريج والبسط، العبودية والسلطة..

ظل القناع يمثل هوية مغايرة للذات، إنه غير معمم، شخصي ومؤقت يرتبط بدور محدد في الحرب، على خشبة المسرح، في المعابد القديمة... يحيل على تجربة إبداعية أو مهنية: فارس، ممثل، مهرج أو طبيب.. حيث يُخرج القناع من يرتديه من هويته الذاتية ليتقمص روح الشخصية التي يحيل عليها القناع في لحظة محددة.

في بعض المدن المغربية.. يرتدي الناس أقنعة، جلود حيوانات، أقنعة مصنوعة لهذا الغرض بمناسبة حفل عاشوراء، أو ما يسمى «إيداون عاشور» أو «بوجلود» ويستعرضون على إيقاع الموسيقى الشخوص التي يمثلونها، حيث يسمح القناع بحرية أكبر لنقد بعض مظاهر الانحراف الاجتماعي أو رفض سلطة وصايا الكبار وجرأة على الانفلات من رقابة المجتمع، إن القناع هنا لحظي مرتبط باحتفال كرنفالي للعشيرة يسمح بتحرر نقدي وبتنفيس الاحتقانات داخل المجتمع ويوسع مجال الحرية.. حيث يخفي القناع وجه المعترض والناقد، وهو ما لا يترتب عنه أي عقاب، ولكنه في الآن نفسه يتيح للجمهور التعرف على الرسالة التي يحملها الممثل المقنع..

بعد ذلك سيصبح القناع وسيلة ثورية للاحتجاج، يحمل معاني الرفض، تحول إلى وجه رافض للوصايا ومناهض للسلطة، وجه ثوري، غاضب، يعبر عن سخطه بوضع كمامة على وجهه تحمل رسالة سياسية كدليل على رفض تكميم الأفواه، لذلك عبر المغاربة عن سخطهم على قانون الرقابة على المنصات الاجتماعية ووسائل التواصل الاجتماعي بوصمه بقانون «تكميم الأفواه» وفي هونغ كونغ كان الثوار يرتدون كمامات «هيلو وكيتي» للاحتجاج حتى أضحت موضة..

إننا حين نرتدي كمامات الاحتجاج للتنديد بالقمع ورفض تقييد حقنا في التعبير، نقوم بإخافة الغير، الآخر غير المرئي أو لتضليل الأرواح الشريرة والكائنات الغريبة كما في الأساطير الإفريقية، أجهزة القمع المتلصصة عبر الكاميرات وعيون الجواسيس، حتى لا تتعرف على هويتنا، نضلل أجهزة الرصد والتتبع ونراوغ خوفا من المنع والاعتقال، نعتبر أن الكمامة هي قناع للتخفي يشل قدرة هذه الأرواح الشريرة على التعرف علينا، نوع من طقوس التنكر، وإذا كان الماكياج قناع بطبقة كثيفة تخفي شخصية المهرج والممثل، فإن السياسي يعمق هذه الدلالة من خلال وضع الكمامة على فمه كصرخة احتجاج، إقفال الفم كملمح ضد تقييد الحق في حرية التعبير، ضد المنع ورفض الحرمان من الحق في الكلام..

في سيمياء الكمامة

البحث في سيمياء الكمامة يقود إلى تعدد معانيها بحسب السياقات والأنساق الثقافية التي تعبر عنها، فالقناع الصحي الذي يرتديه الأطباء له وظيفة حمائية، لكنه يرمز في ذات الآن إلى التميز العلمي لحامله، طبيب مختص، طبيب جراح.. القناع يميز، يصنف الوظيفة الاجتماعية والقيمة العلمية لمن يرتديه، وقناع اللحام وأقنعة الغاز تحدد الوظيفة الاجتماعية والمهنية لمرتديها.. والقناع الحربي ستنتقل وظيفته من ترهيب وترويع العدو إلى حماية المحارب من نصل السيوف ووقع السهام..

وإذا كان اللثام والنقاب وحجب الوجه خصيصة نسائية في العديد من المجتمعات الإسلامية كرمز لحجب الفتنة وستر العورة ودليل على النقاء والطهارة، الوقار والحشمة، فإنه لدى الطوارق خصيصة رجالية، رمز للفحولة، وغير الملثم كمن يبرز بلا قضيب بلا رجولة، عند الملثمين الطوارق يبدو الشخص غير الملثم كما لو أنه

لم يستر عورته، (وعلى عكس باقي الثقافات، فإن الرجال الطوارق يتعرفون على بعضهم البعض من خلال اللثام، لا عبر كشف الوجه) في شرق وجنوب آسيا، إذا لم ترتد القناع الصحي وسعلت في الشارع العام، تعتبر غير مهذب..

أما لدى المرابطين الذين أطلق عليهم الملثمون لاشتهارهم بارتداء لثام الوجه، فيرمز قناع الوجه إلى هوية حربية لسلالة حاكمة وأيضا كان وسيلة لتضليل العدو من خلال جعل النساء يرتدين لثام الرجال حتى لا يغار عليهن أثناء رحلات الرجال في الصيد أو الغارات الحربية على باقي القبائل.

في آسيا لا تعتبر الكمامة مجرد واقي لجسد الإنسان من عدوى الأمراض المنتشرة في الهواء، بل تحمل هوية جماعية، تشعر مرتدي القناع الصحي بالانتماء إلى جماعة موحدة، وأيضا تهدم الفروق الطبقية والتمايزات الاجتماعية، يقول جون.ل. سبونر في مقال له «تاريخ أقنعة الوجه الجراحية: الأساطير والرجال والنساء خلفها» إن ارتداء الصينيين للقناع الصحي لم يكن فقط بهدف الحماية من عدوى الفيروسات والجراثيم بل أيضا يحمل سمة «تحويل الناس إلى مواطنين ذوي عقلية علمية»، حتى أصبح القناع الطبي جزءا من الحياة الصينية وعموم شرق وجنوب آسيا، كتعبير عن الرعاية المجتمعية والوعي المدني، لا معنى للخوف هنا في ارتداء الكمامة التي تحيل على القاسم المشترك داخل جماعة لها هوية موحدة بلا تمايز أو اختلاف.

الأثرياء الكبار وجائحة كورونا: عدل «الفيروس التاجي» مجرد وهم

«ما الكآبة؟ إنها السعادة التي يشعر بها المرء حين يكون حزينا»
فيكتور هوغو

أصاب فيروس كورونا المستجد العالم بأسره، لم يعرف حدودا للانتشار، حتى اعتبر فيروسا معولما وعادلا، لأنه لم يعترف بالحواجز والحدود بين الدول، ولم يميز بين عالم متقدم وآخر متخلف، ولا طرق باب جنس أو نوع أو فئة اجتماعية دون أخرى، أصاب الأثرياء والفقراء، اكتسحت جائحة كورونا دول الشرق وإمبراطورية الغرب وما اعتبر في ميزان المنظومة الدولية: دولا سائرة في طريق النمو، قتل رجالا ونساء، شيوخا وأطفالا وشبابا، ومسّت جائحته المرفهين جدا والمسغبين في القاع الاجتماعي على السواء..

لكن حين النبش في التفاصيل سنجد أن تفاعل الأثرياء البالغي البذخ مع فيروس كورونا المستجد يبدو مثيرا للفضول الصحفي.. فمهما حدث فإن معدلات الإصابة بالفيروس العابر للحدود تبدو طبقية، وليست إصابة بضعة أغنياء العالم، سوى ضرب من التعويم الإحصائي لإبراز عدالة فيروس كوفيد 19.

فالولوج المتيسر إلى رعاية صحية جيدة، وشروط التنقل ونوع التغذية الحمائية المتوازنة وظروف الإقامة... توسع الفجوة بين الأثرياء الكبار والفقراء الذي يوجدون في القعر الاجتماعي، من حيث الإصابة بفيروس كوفيد 19، إضافة إلى بعد الوعي مقابل الأمية والجهل، الوفرة في وسائل النظافة والبيئة السليمة،

كانت طبيعية أو اجتماعية بين كبار الأثرياء ومن يوجدون في صفوف الطبقات الاجتماعية الأشد فقرا.

فقد تتبعنا فيديوهات نشرت على نطاق واسع في تطبيقات التواصل الفوري وفي وسائط التواصل الاجتماعي، تبرز أحياء شعبية فقيرة لا يبدو أن الحجر الصحي قد طالها ولا شملتها مقتضيات تقييد الحركة والتنقل في زمن الطوارئ الصحية المعلنة من طرف السلطات العمومية والصحية، من حيث الازدحام المفرط، عدم ارتداء الكمامات، أطفال صغار يتجولون في الأزقة حفاة، الناس البسطاء يتجولون في أسواق الأحياء المكتظة بالسكان، في غياب أي مسافة للأمان والتباعد الفيزيقي وجهل بلا حدود بشروط الوقاية يدفع إلى الاستهانة بالحياة..

ورغم غياب إحصائيات دقيقة تبرز الفئات الاجتماعية الأكثر تعرضا للإصابة بفيروس كورونا، فيمكن أن نخمن بحدسنا فقط ومن خلال مراقبة نوعية الحالات التي رأينا نقلها من أحياء شعبية بالصوت والصورة عبر وسائط التواصل الاجتماعي، أنها ستكون مرتفعة كلما انحدرنا في السلم الطبقي، رغم العدالة التي يظهر بها الفيروس التاجي المعولم.

صحيح أن الأثرياء الكبار هم دوما قلة، لكن شروط العيش والوعي الصحي ووسائل الوقاية والحماية تبدو مصاحبة للطبقات العليا في المجتمع، كما في سائر الأوبئة التي كانت تحصد أرواح الكادحين أكثر مما تحصده من النبلاء.

فقد بدأ أثرياء العالم يقصدون إقاماتهم المجهزة في القرى النائية خوفا من جائحة كورونا المستجد، والباذخو الثراء أصبحوا يقصدون أماكن نائية أشبه بالفراديس الطبيعية عبر طائرات خاصة قد يبلغ معدل الرحلة الواحدة منها أكثر من 20 ألف دولار (ما يعادل 17 مليون سنتيم)، وكيّفت العديد من الشركات نشاطها السياحي مع جائحة كورونا، إذ قدمت لزبنائها رحلات خاصة نحو أماكن

بعيدة عن اكتساح الفيروس القاتل مع توفير وسائل السلامة والوقاية الصحية لمن يدفع أكثر من أثرياء العالم الكبار الذين رغم غلق الحدود ومنع حركة الطيران والسير والجولان يقبلون بكثافة على هذه الرحلات التي تقدمها كبريات الشركات السياحية العالمية في زمن الحجر الصحي وحالة الطوارئ لفائدة أثرياء العالم الكبار، من خلال صنع كمامات واقية عالية الجودة وباهظة الثمن، قد يصل سعر الواحدة حسب تقرير أمريكي إلى 100 دولار للكمامة الواحدة، وتوفير وسائل التمريض والتطبيب على طول مسار الرحلة، وكشف يومي لاحتمال الإصابة بالفيروس القاتل.

وقد أوردت صحيفة «تلغراف» البريطانية أنه بالنظر إلى إجراءات إغلاق الحدود التي طبقتها دول عديدة لمنع انتشار الفيروس، فقد قام عدد من الملياردیرات برحلات إلى ملذات آمنة، باستخدام طائرات خاصة ويخوت فارهة، في اتجاه ألاسكا وجزر جنوب المحيط الهادي.. وأكدت «تلغراف» استنادا إلى تصريحات الرئيس التنفيذي لشركة «برجيه» لليخوت أنه من المتوقع أن يدفع مستأجرو اليخوت 500 ألف جنيه استرليني (أي ما يعادل 6.187.625 درهم مغربي) في الأسبوع، عدا تكاليف الطاقم.. كما سارع أثرياء العالم الكبار في ظل أجواء غلق العديد من الدول لحدودها إلى استعمال طائراتهم الخاصة أو استئجار خدمات شركات مثل «إيليت جيمس» البريطانية التي تتلقى أكثر من مائة طلب في اليوم لتأجير طائرات خاصة..

يبدو سادة العالم البالغو الثراء أكثر دعرا، إنهم مستعدون لدفع أي تكلفة مقابل النجاة بأرواحهم من فيروس كورونا المستجد، لذلك قصد العديد منهم الجزر البعيدة التي لم يمسسها وباء كورونا بسوء، وكيّفت الفنادق الفارهة التي أضحت مقفرة، خدماتها مع الوضع الجديد، حيث ابتدعت خدمة تسمى «فيروس 19»، وهي عبارة عن إقامة فارهة مع اختبار يومي لفيروس كورونا المستجد داخل غرف

مجهزة بكل أشكال الراحة، وزيارة دورية للأطباء وحضور ممرضات أنيقات مثل ملائكة الرحمة، بالقرب من مستأجري هذه الخدمات، يلبون طلبات الداعين في كل حين، بهمة ونشاط، وقد يصل ثمن الإقامة لليلة الواحدة إلى ما يفوق أربعة ملايين سنتيم مغربي، وآخرون ممن لم يجدوا إلى التحليق خارج بلدانهم بديلا، من ذوي الياقات البيضاء، جهزوا إقاماتهم في الأرياف والقرى النائية بأجهزة التنفس الصناعي وبكل ما يلزمهم لضمان رعاية صحية دائمة، وحماية متواصلة من أثر الجائحة التي ضربت العالم..

في نيوزيلاندا عملت شركة «راينغ أس» المعروفة بتصنيعها لملاجئ الأثرياء الكبار تحت اسم «ملاجئ يوم القيامة»، لتهيئ إقامات فارهة بكل مستلزمات العيش الرغد وشروط الأمان الصحي في عمق الأرض، حوالي 11 قدما تحت الأرض، هذه الملاجئ السرية التي تصل تكلفة الواحدة منها ما بين ثلاثة وثمانية ملايير دولار، كانت قد امتلأت عن آخرها بالأثرياء الكبار الأمريكيين حسب تصريح المدير العام لشركة «رايينغ آس» التي يوجد مقرها بتكساس..

بل إن بعض الأثرياء الكبار من الشرق الأوسط واليابان والولايات المتحدة الأمريكية اشتروا جزرا معزولة، وصرح كريس كرولو الرئيس التنفيذي لسوق مبيعات وإيجارات الجزر الخاصة: «إن جزيرة جلادين التي تقع في منطقة بحر الكاريبي، تحظى بشعبية خاصة وبإقبال كبير، باعتبارها الجزيرة الأكثر أمانا على هذا الكوكب لأي شخص يرغب في الاختباء من هذا الفيروس الرهيب»، وتبلغ تكلفة الإقامة فيها 2950 دولار لليلة الواحدة دون باقي الخدمات التي توفر الخصوصية الكاملة.

فيما يقضي الفقراء يوميات حجرهم الصحي وسط جهلهم وبؤسهم في منازل مكتظة، حيث الفقر والخصاص المهول، يخرجون إلى الأزقة بكثافة، يخالطون

بعضهم البعض في غياب أدنى شروط السلامة وحفظ الصحة، وحين يتوجه من وجدوا إلى عملهم سبيلا يحافظون على عاداتهم: لا أمان، لا كمامات، لا نظافة، لا وعي صحي، كما في باقي أيام الله يتصرفون، والعديد منهم، لجحيم ما يعيش أو لعدم تقدير الظرف الحرج، يعتبر أن ما عاشه من بؤس وذل، يمنحه مناعة وجودية لمقاومة فيروس كورونا المستجد الذي لا يؤمن به العديد من البؤساء الواقعين تحت سطوة نظريات المؤامرة.. وهذا ما أدخل العديد منهم إلى السجون، ووجد بعضهم أنفسهم من كثرة الاختلاط مصابين بفيروس كورونا وبين فكي الموت..

لا يوجد أي عدل أو مساواة حتى في هذه الجائحة المعولمة، فالوضع الاجتماعي والاقتصادي يلعب دورا كبيرا في التعرض للإصابة بفيروس كوفيد 19، وفي وجود فجوة كبيرة في معدلات انتقال العدوى والوفيات، فالأثرياء الكبار خاصة يهربون إلى فراديس محصنة وبعيدة عن فيروس كورونا، كما يقصدون المنتجعات في القرى البعيدة ويعملون عن بعد بالتكنولوجيا العالية التي يتوفرون عليها، فيما يقضي الفقراء حياتهم في أحياء تفتقد للبنية التحتية ويضطرون إلى العمل في بيئة غير سليمة.. هنا يجد فيروس كوفيد 19 بيئة منعشة للتكاثر والتناسل المريح في بؤر صناعية وعائلية أو شبه عائلية حتى.

سيناريوهات عالم ما بعد كورونا:
قطبية جديدة، استبداد رقمي، عودة الدولة الراعية

«الكذبة لا يمكن إلغاؤها أبدا، حتى الحقيقة ليست كافية لذلك»

بول أوستر

برغم أنه لم يكن عالم أوبئة ولا مؤرخ لها، فقد امتلك ابن خلدون فراسة ذكية جعلته يستنتج أن الأوبئة والجوائح لها دور في تغيير مسار التاريخ، في انبثاق حضارة ونهاية أخرى، إلى جانب عوامل أخرى متزامنة تكون مساعدة لهذا التحول؛ تفكك العصبية، أزمة مالية، فقدان الثقة في المؤسسات، نزاع مسلح، احتقان اجتماعي صامت.. فتكون الأوبئة والجوائح مثل القطرة التي تُفيض الكأس، وها نحن اليوم شهود على اجتياح العالم لوباء كورونا المستجد، الذي يعتبر ـ من حيث الخسائر البشرية ـ لا شيء أمام الأوبئة المتوحشة التي شهدها كوكبنا الأرضي، مثل الموت الأسود الذي اقترن بالطاعون ثم الكوليرا والجذري.. لكن للفيروس التاجي ميزات مغايرة، إنه أول فيروس معولم اكتسى شكل النظام السياسي والاقتصادي القائم، فانتقل مثل البضائع والسلع بحرية وبسرعة فائقة، وأول وباء في عصر فورة وسائط التواصل الاجتماعي الذي أضفت عليه رعبا كبيرا وسخرية فائقة، إنه وباء له «جماليته» الخاصة في زمننا، وله ميزة أخرى هي أنه حدث يجري ووقائعه تتسارع يوما عن يوم في الوقت الذي نحاول التفكير فيه والقبض على ميكانيزمات ما سيُحدثه من تغييرات مستقبلية بيقين يتناقض حتى مع أبسط مقومات العلم ذاته..

وإذا كان من الصعب الآن الجواب الحاسم على سؤال إلى أين يسير العالم بعد وباء «كوفيد 19»، لأننا في بداية الأزمة، التي تبدو الأولوية المركزية فيها للصحة العامة والحفاظ على البقاء، فإن إسقاطاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أكثر فظاعة، لأن مرحلة الحجر الصحي، التي تخفض تكلفة الاستهلاك وأشكال تدخل الدولة، ستمتص الصدمات الأولية وستحاول مرحليا فقط تجنب الأسوأ..

نحتاج إلى مسافة أكبر لرسم حقيقة ما سيكون عليه العالم ما بعد كورونا، إذ لا يمكنك إحصاء دجاجاتك قبل أن تفقس من بيضها كما يقول المثل الإنجليزي، لكن واستقراء لمجموعة من العناصر التي بدأت معالمها تتضح شيئا فشيئا، واستنادا إلى تجارب التاريخ في لحظات التحول الكبرى للبشرية، يمكن رسم سيناريوهات متباينة، لاحتمال ما ستكون عليه البشرية بعد محاصرة الوباء القاتل الذي لا يبدو قريب المدى ما لم يجد له لقاء مناسب، لكن يجب أن نكون حذرين جدا، فالأسباب الكبرى لا تؤدي دوما إلى متغيرات عظمى في الجغرافية السياسية، كما يجب أن نتذكر دوما أن التنبؤ ليس من العلوم الدقيقة، فالعالم صراع إرادات وقوى ومصالح، وليس مجرد قراءة في كف الأحداث لضبط تحولات الجغرافية السياسية لعالم ما بعد فيروس كوفيد 19..

باي باي «العولمة» كما ولدت في أرض سبعة رجال

انطلقت العولمة نهاية الحرب العالمية الثانية مع ميثاق هافانا عام 1947، مباشرة بعد مؤتمر بريتون وودز الذي قاده صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير بواشنطن في فاتح مارس1947، أي أثرياء الحرب الجدد الذين مولوا كل الأنشطة الدولية لإعادة إعمار دول دمرتها الحرب الكونية، وكان أهم ما جاء في هذا الميثاق (havana charter) هو الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة (GATT)، لكن انقسام العالم إلى منظومتين متصارعتين في إطار الحرب

الباردة التي تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي لم يمنح الأوكسيجين اللازم للاتفاقية الجديدة التي لم تصادق عليها سوى 23 دولة في جنيف عام 1947، وكان لا بد من انتظار سقوط جدار برلين، حيث استضافت أرض سبعة رجال- مراكش بالمغرب- مؤتمر الكات (général agreement on tariffs and trade) التي ستتحول إلى منطقة التجارة العالمية (wto) التي وقعت عليها 117 دولة في بداية 1994.

كان لقاء مراكش الدولي بداية إقامة نظام عالمي جديد قاعدته الأولية تحرير التجارة الخارجية وإقامة مناطق حرة، لكن بنيته العميقة: نهاية رعاية الدولة الوطنية، تحت غطاء تشجيع حركية الإنتاج ورؤوس الأموال والاستثمارات وخفض الحواجز الجمركية.. سادت «النيو ليبرالية» المتوحشة، وغاب الشق الاجتماعي/ التضامني عن الأسس التي قدمتها الدول الكبرى كقاعدة لتحقيق استفادة مشتركة من دعم اتفاقية الكات، انهارت الحدود ومعها السيادة التقليدية للدول الراعية وتحكم الاستهلاك في توجيه الرغبات.. وها قد سرّع فيروس كورونا المستجد من اهتزاز ثقة الأمريكيين والأوربيين ذاتهم بالعولمة بشكلها الحالي وفضائل التجارة الدولية التي انقلبت من فردوس موعود به إلى جحيم هاديسي، فقد تضاعف عدد الأمريكيين الذين قدموا طلبات الإيداع الأولية للتأمين ضد البطالة منذ نهاية مارس إلى النصف الأول من أبريل الجاري من 3.3 مليون إلى 6.6 مليون، وأكد الخبير الاقتصادي جوستين ولفرز لصحيفة «نيويورك تايمز»، أن البطالة الأمريكية ترتفع بنحو 0.5 في المائة يوميًا، وتوقع أن يصل معدل البطالة الإجمالي إلى 30٪ من السكان الأمريكيين النشيطين بحلول الصيف، أما الاتحاد الأوروبي فقد بدا أشد ارتباكا أمام فيروس لا يحمل جنسية ولا يحتاج فيزا لاجتياز الحدود، انكمش الاقتصاد الأوربي بشكل لم تعرفه أوربا منذ الحرب العالمية الثانية، بموازاة مع التداعيات الاجتماعية لهذه الدراما البشرية الهائلة التي عصفت بالاقتصاد العالمي الذي تحتكره بضعة ديناصورات من الكارتيلات الاقتصادية تفوق أي حساب.

هذا سيناريو مجمع عليه، أي أن النيوليبرالية المتوحشة ستشهد تراجعا كيفيا لا كميا، على اعتبار أن حتى الأوبئة التي شهدها العالم في بداية القرن الماضي مع وباء الأنفلونزا في 1918 و1919 لم تعلن عن بداية عصر جديد من التعاون الدولي، لكن وكما أكد الخبير الأمريكي روبن نيبلبت: «فإن جائحة فيروس كورونا المستجد ستُنهي حتما العولمة كما نعرفها»، فالتركيز حول المال بدل الإنسان أفرز صعوبات كبرى لقادة العالم الجديد. كما أن سرعة انتشار الوباء ومخاطره الكارثية على ساكنة العالم الغربي كما في إيطاليا، إسبانيا، فرنسا وأمريكا متزعمة العولمة «التقليدية»، مع غياب التخطيط وضعف القيادات السياسية، سيضر كثيرا ب«العلامة التجارية» للنظام العالمي الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية.

الشمس قد تشرق من قلب الشرق الأقصى بزعامة الصين

هيمنة رجال الاقتصاد الشرهين والسذج الأنانيين والشعبويين على السياسة في العالم الغربي، والتراخي في اتخاذ قرارات حمائية لمحاصرة الفيروس أدى إلى زعزعة ثقة المواطنين في قدرة هذا النظام الذي كانوا تحت سطوة دعاياته السحرية، لحمايتهم من التهديد المدمر لفيروس كورونا، الذي تسبب في خلق الرعب وغلق الحدود وتعطيل الأسواق وشل الحركة، وكشف هشاشة النظام الصحي الذي كان يقدم كنموذج للتقدم الغربي، واستناداً إلى السيناريوهات المختلفة لتأثير وباء كورونا على نمو الناتج المحلي الإجمالي العالمي، تشير تقديرات منظمة العمل الدولية إلى ارتفاع البطالة العالمية بنسب تتراوح بين 5.3 مليون (السيناريو المتفائل) و24.7 مليون (السيناريو المتشائم)، وذلك زيادة على عدد العاطلين عن العمل في عام 2019 الذي بلغ 188 مليوناً.

إن عالما جديدا يولد بين ظهرانينا اليوم، عالما ليس فردوسا جديدا، لكنه عالم مغاير بنظام قيم جديدة لم تتضح معالمها بعد، لأننا وسط الزلزال المعولم،

هناك في ذلك الشرق الأقصى الأسطوري والساحر ذي الثقافة العميقة والحضارة الباذخة، الذي حافظ على قيمه الثقافية ونظامه الاجتماعي، تسير الصين نحو قيادة العالم باطمئنان، فسرعة محاصرتها للوباء التاجي الذي ظهر بين أحضانها، سيجعل مواطنيها يثقون أكثر بنجاعة نظامهم السياسي وقوة مؤسساته، وبحكم قدرتها الفائقة على تكييف اقتصادها الذي وجهته نحو صناعة «الحرير الصحي»، أصبحت المورد الأساسي لجل ما يحتاجه العالم، إن التكلفة السياسية لغياب الحريات وتدخل الدولة في تفاصيل حياة الصينيين لن يشكل أولوية بالنسبة لعالم أصبح هاجسه حفظ البقاء وأولوية الصحة العامة..

قد تسير الصين نحو عولمة مختلفة تخفف من استيلاب السلع أمام منتجيها، وستمد العالم بما سيحتاج إليه، كل حسب حاجته، كل حسب دخله.. إنها عولمة قد تبدو أكثر إنسانية، حيث يتوحد المال والإنسان، البضائع المادية والقيم الثقافية الملازمة لها.. إن محورية التنين الصيني في عالم ما بعد كورونا ستصبح حقيقة لا غبار عليها، ومعه ستأتي كوريا الجنوبية، الهند وسنغفورة، وستتبعها روسيا.. إن تنافسا عالميا جديدا سيولد من المحتمل جدا أن تقوده الصين، في الجهة التي ستبزغ منها شمس حضارة ما بعد كورونا، الشرق الأقصى! هذا سيناريو يدغدغ كثيرا مشاعر الاشتراكيين وذوي النزعات الإنسانية..

إذ يرى «جوزيف س. ناي جونيور» الأستاذ بجامعة هارفارد في مقال له بمجلة «فورين بوليسي»، أن وباء كورونا لن يغير التوازن القائم لصالح الولايات المتحدة.. لقد تضرر كل من الاقتصاد الأمريكي والصيني بقوة، دخلت الصين في أزمة مع تباطؤ معدل النمو وانخفاض الصادرات، وعلى خلاف الولايات المتحدة التي تتميز بموقع جيو سياسي مهم فإن الصين لديها نزاعات إقليمية مع محيطها، من ناحية أخرى، تعتمد الصين بشكل كبير على واردات الطاقة التي تمر عبر الخليج الفارسي والمحيط الهندي، حيث تتمتع الولايات المتحدة بالتفوق البحري.. بالإضافة إلى

تمتع أمريكا بمزايا ديموغرافية، فمن المرجح أن تنمو القوى العاملة الأمريكية بنسبة 5 في المائة، بينما ستتقلص في الصين بنسبة 9 في المائة، ويضيف الباحث الجامعي أن القوة الأمريكية تأتي أيضًا من موقعها في طليعة تطوير التقنيات الرئيسية بما في ذلك التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا النانو وتكنولوجيا المعلومات.. لكنه يخلص إلى أن «كل هذا يشير إلى أنه من غير المحتمل أن تحدث جائحة كوفيد 19 نقطة تحول جيو سياسية، ولكن في الوقت الذي تستمر الولايات المتحدة في الاحتفاظ بمعظم الأوراق الرابحة، فإن القرارات السياسية المضللة قد تجعلها تلعب هذه الأوراق بشكل سيئ»، وهنا قد يكون لهذا السيناريو الرجحان المبين.

عالم برأسين: العودة إلى الحرب الباردة عسكريا، الساخنة اقتصاديا

يبدو هذا السيناريو أقرب إلى الواقع، ولكن ليس على المدى السريع، فلن تفرط الشركات الكبرى المتحكمة في صناعة القرار السياسي العالمي بسهولة في مصالحها، التي أصابها الكثير من العطب، والدليل هو تحول الكثير من الدول الغربية إلى «قراصنة جدد»، يعترضون الشحنات الطبية القادمة من شرق آسيا.

أمام هذه المعطيات، ستتطور بنية جديدة للحكامة الاقتصادية العالمية، وسيصبح العالم أمام منافسة جيوسياسية تقودها الصين في الشرق، والولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، أما الاتحاد الأوروبي، فسيعيش ما يشبه وضع ما بعد الحرب العالمية الثانية.. هناك يمين حاكم، حوّل قضية المهاجرين إلى عدو خارجي، وطالب بإغلاق الحدود، لكن فيروس كورونا أصبح عدوا داخليا، والحدود المغلقة زادت من معاناة أوروبا، وشعبوية الحاكمين الجديد أصبحت تتلقى الضربات

بعد اكتشاف أن معظم المشتغلين في الصف الأمامي لمواجهة كورونا، هم من الجيل الثالث للمهاجرين، لقد أصبح كل قادة أوروبا المنحدرين من اليمين محط سخرية، وأضحوا جزءا من المشكل في محاصرة وباء كورونا المستجد..

هذا البعد، سيفرز معطيات جديدة لعالم ما بعد كورونا، العودة إلى قطبية جديدة، ستكون حربها الباردة عسكريا فيما اقتصاديا ستظل ساخنة، برأسين: الصين في الشرق والولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، فيما الاتحاد الأوروبي سيشهد تفسخا أكبر بعد انسحاب انجلترا، وفي كل الأحوال لن يعود إلى قوته السابقة، فاليمين المتطرف سيتلقى ضربة قاصمة، والقادة الاقتصاديون السذج ـ باستثناء مريكل ألمانيا التي لاقت إجماع 88% من الآراء المؤيدة لنجاعة خطتها في مواجهة فيروس كورونا- سيفقد متكأهم السياسي في التركيز المستمر على قضايا المهاجرين، الكثير من الدفء الشعبوي الذي كانوا عبره يجيشون مواطنيهم ضد الأجانب.

إننا أمام ما يشبه السقوط الحر للنظام العالمي الجديد وميلاد قطبية جديدة في ظل انكماش اقتصادي غير مسبوق.

عودة الدولة الراعية:
إنه عرس الوطنيين والقوميين والاشتراكيين

مع فيروس كورونا المستجد، أغلقت جل الدول حدودها، وانغمس العالم المتقدم في صراع داخلي مع الجائحة بالكثير من النرجسية القاتلة، ووجدت الدول التي انخرطت في سياق عولمة بلا حدود، وحيدة في مواجهة مصيرها والاعتماد على قدراتها الذاتية، هذا الوضع سيفرز انهيار أنظمة سياسية لم تستطع التحكم في انتشار الوباء، وأخرى ستتقوى أكثر، وهو ما سيساهم في إعادة الثقة لمؤسسات

الدولة الراعية/الوطنية، التي ستكشف عقم العديد من خياراتها الإستراتيجية التي فرضتها عليها النيو ليبرالية المتوحشة، وهذا سيغير الكثير من الأولويات التي كانت مدرجة على جدول الدول النامية خاصة، مستغلة روح التضامن والثقة والإجماع الوطني التي صاحبت فيروس كورونا المستجد..

لكن علينا أن نكون حذرين فالأوبئة التي غيرت مجرى التاريخ، لم تكن تسير دوما نحو الأفضل، فالدول التي جندت كل أجهزتها للقضاء على فيروس كورونا المستجد، وفعّلت أجهزة مراقبتها وطوّرت قدراتها الأمنية، سيكون من الصعب تصور أنها يمكن أن تتخلى بيسر على تحكمها في المجال العام، وهذا قد يكون فيه الكثير من الضرر على حقوق الإنسان وقد يرسخ في بعض المناطق العزلة والانكفاء على الذات، ومعه قد تعود الأنظمة الاستبدادية للسيطرة على الحكم.

من الرأسمالية المالية إلى الاستبدادية الرقمية:

هذه التكنولوجيا الرقمية العالية، التي تتحكم فيها الشركات الغربية أساسا (غوغل، أمازون، فايسبوك، آبل..) ستكيف عالم ما بعد كورونا وفق مصالحها، وستغدو للتكنولوجيا الموجهة لبرمجة الكائنات (الجافا java) التي ابتكرها جيس غوميلينغ في بداية التسعينيات ذات سلطة لا تقاوم، إذ أن الحجر الصحي، فرض تقنية «كل شيء عن بعد» (ابقى فدارك، تنجي راسك stay home, stay save)، ستدمج السلع والبضائع في نظام رقمي غير مسبوق، وكلما طال أمد انتشار فيروس كوفيد 19، كلما اجتهدت الشركات الكبرى في تقوية تكنولوجيا العمل والتواصل واستخلاص الفواتير والإنتاج والخدمات عن بعد، وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى تحول النظام القيمي برمته، حيث تنتقل البشرية من حضارة الخارج إلى حضارة الداخل، وقد نكون شهودا على انتقال العالم نحو الرأسمالية الرقمية التي قد تغدو أكثر إنسانية أو تزداد شراسة واستبدادا ورقابة..

«الكورونية» تشرع أبواب الكون على اختبارات الفردانية القاسية أو التضامن الإنساني

«إنك حين تفتح ذراعيك لتستقبل الحياة، تكون قد رسمت خلفك علامة الصليب»
لويس أراغون

نحن نعيش دورة كبرى من الزمان، لست أدري إن كنا محظوظين أو ذوي سوء حظ، فالكوارث والأزمات الثقيلة تترك وشما في الجسد والروح ولدى الجماعة في علاقتها بقيمها وتمثلاتها وفي علاقتها بمحيطها وبالآخرين، ولأننا نحيى في زمن العولمة، حيث يتسيد التافهون والنهابون والمرتزقة والفاجرون، فإن أوبئتنا أيضا معولمة، من الإيدز إلى إيبولا، فجنون البقر، أنفلونزا الطيور والخنازير، حتى كوفيد 19 ونسله الكوروني..

إنها أوبئة من جنس هذا الرأسمال «الجرمينالي» (نسبة إلى رواية إميل زولا)، الذي حولنا كلنا إلى سلع والذي قال عنه ماركس: «يأتي رأس المال إلى العالم بثمن الدم والطين الذي ينضح من كل المسامات»، وسلب كل قدراتنا الإنسانية على المقاومة، لقد زلزل فيروس كورونا المستجد، الكثير من القناعات الكسولة التي استكنا إليها ونحن غارقون وسط نظام استهلاكي ضرب كل أشكال المناعة النقدية فينا، وأقنعنا – بروح حضارية- بعبودية أقل في المساواة بين من يضرب بالسوط ومن يقع عليه الضرب..

وفي غفلة عنا تسيد «تافهون» نوعيون من أهل الموضة، ونجوم كرة القدم، ومغنيات ناجحات بقوامهن لا بصوتهن أو كلمات أغانيهن، وإعلاميون سطحيون انتصروا دون أن يخوضوا المعارك التي أخذها المثقفون والمفكرون والمبدعون الحقيقيون والصحافيون النبلاء وغيرهم، ضربنا فيروس كورونا ونحن منغمسون حتى قنة رأسنا، في دوخة الإيمان بسكينة العالم، ما دامت المحلات الكبرى مملوءة بآخر صيحات الموضة، والأسواق التجارية دائبة التموين، والمدارس تبتلع أبناءنا وتريحنا من ضجيجهم، وتتسع أحلامنا للربح السريع والسهل حتى لو كان على مائدة قمار أو ضربة نرد.

وها نحن اليوم نكتشف كيف اهتزت ثقتنا بكل شيء مع عطسة فيروس حقير جاء من الخفافيش وانتقل إلى الثعابين وطوّر نفسه في فصيلة الثدييات كما يقول العلماء.. وحتى في هذه الحقيقة نحن دائخون، لأننا لم نعد نثق بشيء.. حيث صعب علينا حتى أن نميز بين الأدعياء والدجالين والعلماء في زمن منصات التواصل الاجتماعي الكاسحة.

لقد مسّ وباء كورونا جوهر الأخلاق التي بني عليها النظام العالمي الجديد، الذي خلق لنا كونا افتراضيا نتلهى في أنشوطة أحابيله وألاعيبه، فيما استفرد الناهبون والسرّاق بالعالم الجغرافي الحقيقي، نهبا وإخلالا بالتوازن البيئي واعتمادا على القوة الضاربة للشركات الكبرى، حيث قدمت أمريكا نفسها كقائدة لقيم الديمقراطية والعدالة الإنسانية، وكقوة لا تهزم، وعلى الآخرين أن يسددوا كلفة حروبها وسلامها على السواء!

وعلى خلاف كل دول الشرق الأقصى، من الصين إلى كوريا التي أبدت حسا جماعيا في مقاومة فيروس كورونا، انغلق الغرب على نفسه، وغلّقت كل الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية الأبواب عليها، بدون أي التفاتة إنسانية للتضامن والتعاون والتنسيق بينها للبحث عن حلول مشتركة للوباء الكاسح..

إنها ثقافة العيش المشترك هي التي انتصرت هناك، وقد تكون «الكورونية» كدورة زمانية كبرى في تاريخ البشرية هي أعلى من الإمبريالية التي اعتبرها لينين أعلى مرحلة في الرأسمالية، ببساطة لأن العالم ما بعد فيروس كورونا المستجد لن يكون كسابقه، إنه حدث مفصلي في التاريخ الإنساني.

كان لوركا محقا حين قال بحس شاعري فلسفي: «بعيدا بعيدا عنك يجري تاريخ العالم، التاريخ العالمي لروحك»، لقد أحسسنا في قلب هذه الأزمة الدولية – نحن جحافل العالم الثالث– أن لا نصير لنا في نظام أقفل الكل عليه الأبواب، لا تضامن عالمي ولا روح إنسانية، ليس لنا غير إمكانياتنا المحدودة وإيماننا بالطاقة الكامنة فينا كشعوب استوطنت في لحظة انكسار، ليس لنا بعد الله غير مجهوداتنا الذاتية، لكن ليس الله الذي يقطن في السماء السابعة والذي يفرض المعتوهون من أشباه الدعاة علينا أن نخرج جماعات لنكبر باسمه ليسمعنا، الله الذي نؤمن به قريب من عباده يجيب الداعي إليه أنّى كان.

في لحظات الأزمات العظيمة، على الدعاة والرقاة الشرعيين وأشباه الفقهاء أن يخرسوا، ليتكلّم العلماء ونحن نصلي لله أن يعينهم في كشف الغمة عن هذه الإنسانية المنكوبة اليوم، باستخلاص الدواء الذي يقتل الوباء الذي لم نر منه إلا القليل، فالآتي أعظم. لأنه سيمس تمثلاتنا وقيمنا وعوائدنا ونظامنا القيمي وبالجملة نظرتنا للعالم، للزمن، للطبيعة وللتاريخ وللآخر الذي ليس جحيما بالضرورة.

أمامنا اليوم طريقان، إما أن نرتد نحو بدائيتنا الأولى، إلى صوت قابيل، إلى طبيعتنا الافتراسية، ونتشبث بالنرجسية وروح الفردانية التي جعلت البشرية مثل جزائر معزولة في عالم قيل إنه قرية صغيرة، ونحيي بطولاتنا الخارقة ونتمسك بالتفسيرات الدينية الغارقة في الخرافة والجهل، ونتمترس وراء هويات أحادية تمجد الذات وتقبر الآخر بوقاحة زائدة، وحينذاك لن نحتاج أن نصيح: أينك

يا ذئب؟ لأن الذئب سنكون هم نحن بصيغة الجمع.. أو نؤمن أن فيروس كورونا المستجد، وربما بسبب خطورته، هو دورة زمنية كبرى تعبرها البشرية، أي أنه وباء كباقي الكوارث التي مرت فيما مضى وتلك التي تنتظر الإنسانية في منعطف المستقبل دون أي تفسير قيامي للتاريخ، ونتوجه نحو جوهر إنسانيتنا، للاهتمام بالآخر في حياتنا، عبر تنمية بُعد التضامن والتكافل الإنساني بدل النرجسيات المقيتة.. ولمَ لا نعيد تأسيس وجود مختلف، فالحياة التي لا تقوم على النقض وإعادة البناء لا تستحق أن تُعاش!

علينا أن نستحضر التعريف الدقيق الذي قدمه الفيلسوف «كانت» للدولة باعتبارها «تجمع إرادات غير نقية في ظل قاعدة عامة»، فإما علينا الاستمرار في ظل «تجمع الإرادات غير النقية» للنهابين واللصوص العابرين للقارات والمملوئين بطاقات غريزية للتدمير وحب القوة والتفرد بالسيطرة، ووضع المصالح العامة للإنسانية والنفع العام في خدمة التافهين، والنهابين والفاجرين! أو ننكب على تشييد أواصر جديدة لوطن العدالة والحرية والمساواة، ونلتفت إلى الجوهر الإنساني فينا، ف«الكثيرون عاشوا بطعم الخيال ملوكا، هذا هو الجوهر العميق للذكاء الكامن وراء القشرة الخارجية للعالم»..

ها هنا دولة.. ها هنا أمة

«الكوارث الطبيعية، أعياد الفقراء»

كولوشه

يخوض المغرب اليوم حربا مفتوحة ضد وباء كورونا القاتل، من وجدنا في هذه المعركة الشرسة التي تجري بغير السلاح التقليدي؟ من هم الجنود الحقيقيون الذين يوجدون الآن وهنا في فوهة الموت؟ إنهم بدون شك الأطباء والممرضون مدنيون وعسكريون والصيادلة وأطر الوقاية المدنية، نساء ورجال الصحة الذين يسهرون على مرضانا، وهم من يعرضون أنفسهم للخطر في غياب وسائل الحماية أحيانا كثيرة، ثم هناك نساء ورجال السلطة بكل أصنافهم: قوات مساعدة، أمن وطني، درك ملكي، جمارك وجيش، وكل أعوان السلطة من مقدمين وشيوخ وقياد ورؤساء الدوائر وغيرهم، غادروا مكاتبهم بمختلف رتبهم ونزلوا إلى الشارع، ثم هناك نساء ورجال التعليم الذين يتجاوزون ساعاتهم المحددة بموجب استعمال الزمن، ويضحون بوقتهم ويبدلون جهدا استثنائيا كي يساير التلاميذ والطلبة من قلب منازلهم دروسهم، لأن معركة محاربة الجهل لا تقل شراسة عن محاربة الوباء القاتل.. لقد كشف فيروس كورونا عن هشاشة بنياتنا التحتية في الصحة، التي كانت ستكون أكثر كارثية لو لم يأمر الملك القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية بوضع جميع أطرها وأجهزتها ومؤسساتها الاستشفائية رهن المواطنين في هذا الوقت العصيب، ورغم ما انكشف من فظاعات في مجال التعليم كانت تسترها الجدران السميكة لمؤسساتنا التربوية، فقد بدل شغيلة التعليم جهدا ملحوظا لمواكبة التطورات التقنية غير المهيئين لها لمحاولة ملء الفراغ، وكشفنا أن عملية

التجهيل التي سادت بلادنا لعقود طويلة أضحت عائقا حتى لدى الدولة في مواجهة فيروس كورونا المستجد.

يصعب في اللحظات الحرجة من مسار أمة تسعى للانعتاق ورسم مسارها بشكل سليم، أن يستدل المرء بقائد عسكري استعماري مثل الجنرال ليوطي، لكن بعض الحقائق تتجاوز جموع مؤيديها ومعارضيها لتبقى خالدة، لكونها تعكس عمقا وحقيقة.. حين دخل الجنرال الإمبراطوري إلى المغرب صُدم بأن تصوره عن البلد غير ما وجده عليه، فقال فيما يشبه الاعتراف الذي يصالح الإنسان مع عمق ذاته: ''ها هنا وجدنا أمة، ها هنا وجدنا دولة''..

لقد خلق فيروس كورونا المستجد ما يشبه ملحمة مغربية لها فرادتها، روح تضامن جماعي بمنسوب جد مرتفع، سلطة بجميع أطيافها تظهر بغير وجهها القمعي، حامية للحق الجماعي في الحياة، وملك يتخذ مبادرات إنسانية ذات طابع وطني، من إجراءات استباقية للحماية من الفيروس القاتل حتى إنشاء صندوق للتضامن بلغت أريحية المغاربة فيه شأوا غير متوقع، وكرم للدولة اتجاه مواطنيها برغم وصول خطها الائتماني إلى مستويات غير مسبوقة.. عادت المصداقية والثقة لمؤسسات الدولة وخطابها باعتبارها ممثلة لمصالح المواطنين، وخارج بعض الاستثناءات، فإنه يجب الإشادة بتحول نوعي في وعي المغاربة وفي سلوكهم والقيم الجماعية التي طفت على السطح بدل النرجسيات القاتلة.. في قلب الجائحة وهذا الحزن المعولم، ثمة بارقة أمل في هذا التلاحم الجميل الذي يدع الاحتراب جانبا ويتكاثف من أجل سلامة البلد..

فما اتخذه المغرب من خطوات احترازية وقائية في وقت مبكر وبشكل متسارع، حتى قبل أن تتخذه دول متقدمة من حجم فرنسا وإيطاليا وألمانيا وانجلترا، من إغلاق المدارس والجامعات وإغلاق المساجد ومنع التجمعات والأنشطة الرياضية والثقافية وغيرها، وصولا إلى إعلان حالة الطوارئ الصحية، ينبئ أن الدولة

المغربية فكرت خلال هذه الجائحة كي لا يتعرى عجز نظامها الصحي وبالتالي ساهمت بقراراتها الاحترازية في ربح الإنسان المغربي وليس مصالحها المالية الضيقة، كل الخطوات المتخذة ستضر بالاقتصاد الوطني حتما، لكن تفكير الدولة كان ذا طابع استراتيجي هو حماية المجموعة الوطنية، أي الحفاظ على الصحة العمومية وحماية أرواح الناس..

لقد خلقت السلطة بالمغرب الحدث بامتياز، هنا نفهم مغزى العبارة التي نطق بها المارشال ليوطي.. لقد وجدنا إدارة قوية، أطرا طبية وممرضين وضعوا أنفسهم في خدمة المواطنين بالتوعية والمواجهة المباشرة مع الفيروس الفتاك، ووراء تلك الصورة القاتمة التي تلصق دوما وفي كل أنحاء العالم بأي سلطة، وجدنا نساء جميلات «قايدات بوكوصات» ورؤساء دوائر ومقاطعات تخرجن إلى الشارع وتقمن بالتوعية، بلغة أنيقة خالية من العسف الذي اعتاده جيلنا، نساء ورجال سلطة متأدبين يتعاملون بشكل راقي، ومن سلكوا مسلكا نشازا فتحت الإدارة العامة للأمن الوطني في حقهم بحثا لترتيب الجزاءات... كما لنا أن نرفع القبعة عاليا للمواطنين البسطاء الذين يستفون التراب في لحظة شح مصادر الرزق ولا يأكلون نعمة ولا يسبون ملة!

إننا حقا في قلب وطن متغير، وفي قلب هذه المأساة خلقت القايدة حورية صاحبة عبارة «الناس كيموتو وانت كتكركر»، الحدث.. لقد تكلمت بعاطفة قوية كأم رؤوم بحسها الإنساني، إنها حقيقة كانت تلامس طبقة عميقة فينا، لذلك ستَعلق صورتها وكلماتها بنا حتى بعد أن تنتهي هذه الجائحة.. كما أن توزيع مقدم واحد لأكثر من عشرة أو عشرين ألف ترخيص استثنائي في 24 ساعة على منازل القاطنين بالأحياء، يدعو المحللين السوسيولوجيين للبحث من جديد في التحولات العميقة لبنية المخزن، كما أن وصول الدعم الذي قدمته الدولة وقُفف المساعدات عن طريق أعوان السلطة إلى أبعد قرية أو هامش معزول في ظروف قياسية يحتاج

إلى وقفة تأمل عن كيفية تغلغل الإدارة المغربية في قلب المجتمع وفي جميع شراييه.. وما كنا ننتقده من أوجه سلبية في معمار الدولة المخزنية، يجب أن نعترف أنه قدم خدمة فعالة في هذه الجائحة.

لقد خلق منا فيروس كورونا أمة واحدة، وراء دولة قوية تراعي مصلحة المجموعة الوطنية.. والموت يطاردنا عن قرب، نحس أن على هذه الأرض ما يستحق العيش: الوطن كشراكة للأحلام، فبورك كل من صنع هذه اللحظة الاستثنائية في ظل تراجيديا بشرية معممة، وجعل المغرب كوطن يتسع للجميع.. رغم أجواء الموت المعمم على البشرية، هذه الملحمة الجماعية التي خلقتها الدولة بكافة أجهزتها والمبادرات الملكية والأطباء والممرضون والصيادلة ومختلف فعاليات المجتمع.. أعادت لجوهر الدولة الراعية وظيفتها الحيوية وثمنت قيمة العمل الجماعي الذي افتقدناه منذ عقود.. يشير شارل سانت بروت مدير عام مرصد الدراسات الجيو ستراتيجية في باريس إلى هذا البعد قائلا: «تجدر الإشارة إلى أن أداء بعض بلدان الجنوب كان أفضل من غيرها في الشمال، ويظل المغرب حالة جد مثيرة للاهتمام.. في معركته ضد فيروس كوفيد 19، أظهر المغرب خاصيتين يمكن أن تستلهم منهما فرنسا والدول الغربية الأخرى الكثير: أولا: القدرة على الإنتاج محليا بما يكفي لتلبية احتياجاته الأساسية، وثانيا تحقيق إجماع وطني واسع عبر حشد جميع قواه الحية وتركيزها على السيطرة على تهديد الوباء.. لقد احتلت المملكة موقع الصدارة فيما يتعلق بالتدابير المتخذة للقضاء على فيروس كوفيد 19».

طوبى لنا إذا ما نجحنا في تدبير كل هذا.. فإن مغربا آخر سيولد، فقد صدق ابن خلدون حين اعتبر الأوبئة مُسرعة لميلاد حضارة وفناء أخرى.. لقد ربحنا مؤسسات دولة في خدمة المجتمع، لا مجتمع رهينة للدولة، نخب حيوية وفعالة، تلاحم جماعي وتضامن وروح مواطنة عالية، ملائكة الرحمة في ملحمة أسطورية لمواجهة فيروس قاتل، وعي مواطناتي وتكافلي غير مسبوق، مجتمع يتحرك بكافة

أذرعه وهو يعلم أن الآتي أسوأ، فلسنا سوى في العتبة الأولى للوباء.. لكن لن نخاف، فها هنا توجد أمة.. ها هنا توجد دولة، وكورونا عابر في الزمان ولن يصبح سوى حكاية ترويها الجدات للصبايا لحظة الخلود للنوم.

صحافة القيّاد والقايدات البوكوصات

«ليس ثمة وسادة أنعم من الضمير الحي»

الفيلسوف الرواقي سينيكا

أعاد انتشار فيروس كورونا المستجد إلى وسائل الإعلام وظائفها الحقيقية: التوعية والإخبار والإنباء بما يدور في مجال الناس، هكذا تحولت صحفنا، رسمية أو خاصة، إلكترونية أو سمعية أو بصرية، وحتى ورقية متحولة إلى تقنية الديجيتال.. إلى منصة حقيقية لنشر الوعي الصحي وتعبئة المواطنين وإحاطتهم بالمعلومة الصادرة عن صناع القرار ذاتهم أو مختلف الفاعلين المؤثرين في صناعة المعلومات والتأثير في صياغة وتنفيذ أو مراقبة وتقييم السياسات العمومية، حيث صالحت جائحة كورونا الإعلام المغربي مع هويته ووظائفه الحيوية في المجتمع، ولست أدري لمَ لم يتم التشييد في بلادنا اليوم بحسنات هذا الإعلام الذي استعاد روحه وحيويته باعتبار ما تقوم به الصحافة الوطنية الحقة من أدوار في التوعية والتحسيس وفي المخاطرة بالذات عبر الانتقال إلى بؤر الفيروس في المستشفيات ليحاور الصحافيون الأطباء والممرضين وحتى المرضى حاملي الفيروس كما تتبعنا ذلك؟ هل لأن الجسم الصحافي يفتقد للمؤسسات القادرة على الدفاع عن قضاياه الحيوية بدل البحث فقط عن مغانم الدعم العمومي والامتيازات أم لأن المسؤولين الرسميين يفتقدون حس تقدير الدور الحيوي الذي تقوم به وسائل الإعلام – باعتبارها أحد مقومات وجودنا الإنساني اليوم– في مواجهة هذه الجائحة؟

لقد أخرس فيروس «كوفيد 19» كل أشكال التفاهة التي تسيّدت في صحافتنا الإلكترونية خاصة، وفرضت الجائحة المعولمة على وسائلنا الإعلامية الكثير من المصداقية والتصالح مع الجمهور الواسع المتعطش للمعلومة الصحيحة، فلا مجال للأرداف وللخيانات الزوجية و«روتيني اليومي» والمقتاتين على عاهات المجتمع وما تساقط من لغو الشارع، وغابت سينا وساري كول ونيبا والإكشوان وباقي التافهين... وغاب معهم نجم مستضيفيهم المنشغلين بالفقاعات والبوز ورفع الطوندونس.. ولم يبق في الساحة لحظة الجد، غير الماكينة الحيوية للمجتمع، أطباء وممرضون ومعلمون وأمنيون وجنود ورجال ونساء الوقاية المدنية وصيادلة وضامنون للأمن الغذائي للمغاربة... من أجل تأمين استمرار حياة المغاربة المختبئين ببيوتهم خوفا من جائحة المرض القاتل.. كمهتم إعلامي لا يمكن لي إلا أن أبتهج لعودة تلفزيوننا المغربي إلى وظائفه الحقيقية في التوجيه والإرشاد ومد الناس بالمعلومة الحقة، أي الوظيفة البيداغوجية الأساسية التي ارتبطت بالصحافة منذ ميلادها، والتي أفرزت نجوما جددا سيرتبط اسمهم لا محالة بجائحة كورونا لأنهم نجحوا في رسم صورة جنود المعلومة والتوعية والتربية الصحية والنصح والإرشاد وإخبار الناس بما يروج في محيطهم.

غير أن ما يحز في النفس هو أن بعض وسائل الإعلام الإلكتروني أضحت مختصة فقط في التهليل لمشاهد «تصرفيق» المواطنين والتعليق بالكثير من الأريحية على نخوة «القياد الشجعان» و«القايدات البوكوصات».. مما أسميه ب«صحافة القواد» نسبة إلى القياد والقايدات، حيث أن الإدارة العامة للأمن الوطني كانت أكثر صرامة في احترام حقوق الإنسان من إعلام آخر زمان، حين فتحت تحقيقا في الخروقات التي قام بها بعض أطرها أثناء تطبيق قانون الطوارئ والحجر الصحي، وأعلنت عن جزاءات صارمة مترتبة عن خرق حقوق الإنسان، ضد من اتسمت تدخلاتهم بالعسف أو الشطط في تطبيق قانون الطوارئ..

يجب أن نميز بين وظيفة الإعلام الأساسية في الإخبار ونقل المعلومات من مصادرها الحقيقية لعموم المواطنين وبين السقوط في دائرة التهليل الفج للسلطات العمومية خاصة تلك التي تخرق أبسط حقوق الإنسان.. ويجب أن نعرف خطوط التماس بين التوعية والتهديد، الذي وصل في بعض وسائل الإعلام إلى السماح بتعليقات تمس بالحق في الحياة ضد بعض ممن خرق الحجر الصحي بالقول إنهم يستحقون القتل والموت! وأن نميز بين واجب نساء ورجال السلطة في تطبيق روح القانون لحفظ الحق في الصحة العامة وخرق أبسط مبادئ حقوق الإنسان التي لا يمكن الصمت عنها، إذ نكون حينها في وضع الشيطان الأخرس.. والحمد لله أن مسؤولي السلطة الرئيسيين حتى اليوم ليسوا على وفاق مع تشجيع «تصرفيق» المواطنين والحط من كرامتهم بشكل فج، فقانون الطوارئ الصحية سن لحفظ حق المغاربة في الحياة، ولا معنى لحياة بدون كرامة، وعلى وسائل الإعلام أن تتسم بالكثير من الوعي في التمييز بين وظيفتها الإخبارية، التوعوية والبيداغوجية وبين الإشادة بالعنف والحط من الكرامة أنى كان مصدره.

لقد علمتنا جائحة كورونا أن البقاء للأجمل والأفيد وليس للأقوى والأتفه، ولكن وسط هذا الابتهاج بعودة الحيوية لإعلامنا الوطني الذي استعاد وظائفه الأساسية في التوعية ومد الناس بالمعلومة من مصادرها الحقيقية لا «المطلعة جدا» بلا سند.. ورغم المجهودات التي تقوم بها الصحافة الوطنية بكل أشكالها في زمن الجائحة العصيب هذا، ورغم أنها أحد القطاعات المواطنة الفاعلة في حقل المجتمع المدافعة عن قيم الديمقراطية والتعدد، خاصة المقاولات الإعلامية الصغرى والمتوسطة التي توجد حقا في لحظة خصاص مادي مهول، ورغم قيام العديد من الأطقم الصحافية بواجب إعلامي متميز وذي بعد تضامني في هذه المرحلة التي تجتازها البشرية وضمنها وطننا، يتم الإصرار على تهميش وتجاهل الصحافة الوطنية، ولا أدل على ذلك، بيان وزارة الداخلية الذي جاء غريبا في

صيغته، حين أقام الحدود والتمايز في الجسم الصحافي بين من ينطبق عليهم، حظر التنقل الليلي خلال شهر رمضان الفضيل بشكل غير مسبوق حتى في أقصى الأزمات الكبرى، بل حتى في لحظات الحروب، يسمح للصحافة بالقيام بأدوارها في نقل الأخبار والمعلومات للمواطنين على اعتبار أن هذه المعلومات أيضا سلاح في مواجهة جائحة كورونا، سلاح يواجه الأخبار الزائفة والمعلومات الكاذبة، وسلاح لحماية المجتمع ورقابة على من يشرف على تدبير أمور الأزمة، فبأي حق يتم منع الصحافيين من القيام بأدوارهم في الإخبار وتغطية الأحداث التي لا تتوقف عند حدود السابعة ليلا، بل إنها على العكس من ذلك ونظرا للطابع المميز لشهر رمضان، فإنها تحدث بكثافة انطلاقا من هذا التوقيت؟

استثناء الصحف الرسمية أو العمومية والإذاعات الخاصة، قرار غير سليم، ويجب مراجعته فورا، لأنه يفتقد لبعد الحكمة والمساواة، ويشكل تضييقا على عمل الصحافيين بشكل غير مسبوق، فلا تُدخلوا الصحافة في الحجر الصحي، وعلى وزارة الداخلية حفظ توازن الحقوق، حيث لا تزر وزرة وزر أخرى.. أما اقتراحها تقدم الصحافيين إلى مصالح الولاية والعمالة بطلب ترخيص للقيام بأي تغطية صحفية، فمحض عبث وغير مقبول حتى في زمن الجائحة، إذ أن الأمر يبدو كتضخم لجسد سلطة على حساب السلطة الرابعة، فهل سيمنح الولاة والعمال الصحافيين تراخيص للقيام بواجب الرقابة حتى على سلطتهم وتتبع كيفية تطبيقهم لقوانين حالة الطوارئ ورصد أي خروقات تمس حقوق الناس وكرامتهم؟

لكن ما دمتم لم تجدوا جسدا صحافيا موحدا وإطارات قوية للدفاع عن هذه المهنة النبيلة، فكما قال الشاعر طرفة بن العبد: خلا لك الجو فبيضي واصفري!

كورونا يحيي ويميت..
وداعا للصحف الورقية
وانعموا بهواتفكم البليدة

«ولكن الحقيبة وحدها وليس الحياة في الحقيبة هي التي تبقى دائما»
فرناندو بيسوا

في بداية شتنبر الماضي، أعلنت مؤسسة «واشنطن بوست» بشكل مفاجئ وقف إصدار الصحيفة الورقية المجانية «إكسبريس» التي كانت توزع بشكل أساسي على ركاب المترو المسافرين في أنحاء العاصمة الأمريكية على مدار الـ16 عامًا الماضية، وكانت توزع منها حوالي 190 ألف نسخة.. وقد تصدّر الصفحة الأولى للطبعة الأخيرة من الإكسبريس عنوان «نتمنى أن تستمتعوا بهواتفكم النّتنة».. لم يكن ذلك إلا حلقة من سلسلة من النهايات الحزينة لجرائد دولية ورقية كانت تزهو بيننا بكامل بهائها وأناقتها..

وسيكون علينا – بعد زمن فيروس كورونا، حين يصحو العالم ليُعد خساراته التي ستكون فوق ما جنته البشرية من الحربين العالميتين، ليس في الأرواح بل في انهيار نظام اقتصادي وقيمي برمته – أن نعد جنازة تليق بموت الصحافة الورقية التي تبدو اليوم مثل فارس أخير سيعجل باستشهاده فيروس كورونا، أتوقع أن ما تبقى من قراء الصحف المطبوعة ممن حافظوا على نخوة التقاليد الأصيلة لملامسة الجريدة مثل جسد أنثى بفرحة العشاق وقيم النبلاء، سيندثرون تباعا، وكلما طال انتشار الوباء المعولم، سيزداد كسل مقتني الصحف الورقية والمطبوعات

عموما وسيعتاد القراء وصولها إليهم على شكل «بي دي ف»، حتى قبل موعد الصدور العادي، وستضطر المقاولات الصحافية، إن أرادت لنفسها الاستمرار، أن تكيف نفسها مع سبق الصحافة الإلكترونية رغم البون الشاسع على اعتبار أنها أصبحت مجانية وتصل القارئ بلا أدنى مشقة عبر الديجيتال أي عبر نفس الحامل الإلكتروني الذي صرعت به الصحف الإلكترونية شقيقتها أو ضرتها الورقية..

إن ما أكلته المقاهي من حصص مقتني الجرائد الورقية بالمغرب، ستُتمه جائحة كورونا، وعلى المقاولات التي تصدر الجرائد الورقية أن تعي اليوم حجم التأثير الذي سيمارسه عليها فيروس كوفيد 19، خارج تدني صبيب الإشهار، فهناك الاندحار المفجع للجرائد الورقية الذي أتوقعه، لاعتبارات عديدة بعضها سابق على جائحة كورونا ويتمثل في تقلص مساحات الغابات وانخفاض نسبة الخشب التي تعتبر المصدر الأساسي لورق الجرائد بالإضافة إلى فورة وسائط التواصل الاجتماعي التي اختزلت الزمن المخصص لميلاد وموت المعلومة التي أصبحت أكثر سرعة للتلف وأكثر انتشارا في زمن الإعلام الرقمي... وبدل الطلب المخجل من الدولة- في عز هذه الجائحة - التعويض عن الخسائر كما اقترح بعض ناشري الصحف الورقية في اجتماع لفدرالية ناشري الصحف، بما قيمته 70 بالمائة من رقم المعاملات التجارية لشركتين كبيرتين، وهو ما ينم برأينا عن انتهازية غير مسبوقة في ظرف سارعت فيه الدولة- رغم إكراهاتها الاقتصادية - للتعبير عن تفهم حقيقي لأزمة المستضعفين ممن فقدوا عملهم بسبب الجائحة.. والذي يساوي مجموع تعويض مائة عامل براتب 2000 درهم ممن فقدوا وظائفهم أجرا شهريا لمدير واحد من هذه الجرائد الإمبراطورية.. يجب على المؤسسات الإعلامية التفكير بالأحرى في التحول السريع من الورقي إلى الرقمي، أي تعويض ذات الجريدة المطبوعة بمنتجات رقمية، بتأسيس مواقع إلكترونية للجريدة وإنتاج نسخ سهلة التحميل على موقعها المخصص للجوال، والتطبيقات، والنشرات الإخبارية، والبث الصوتي

الرقمي، والفيديو.. لأن الصحافة في حاجة إلى خبرة ومهنية الصحافة الورقية وصحافييها، وإعادة تكوين الصحافيات والصحافيين وفق هذا التطور الذي سيعمقه فيروس كورونا، الذي سيخلق قارئا كسولا يجب أن تصل إليه بدل أن يأتي إليك..

انتهى الزمن الإمبراطوري للصحيفة الورقية التي كانت تتزين كل صباح بأبهى الألوان لتغري مريديها، وتعرض كامل أناقتها وكبريائها في المكتبات وأكشاك الصحف وتفرض على خطاب ودها، أن يأتوا إليها ويقتسموا ثمن شرائها مع قوت عيالهم، ومع الصحيفة الورقية تأتي عادة شرب القهوة وباقي الطقوس، ذاك زمن ولّى.. إن لم تذهب إلى القارئ فستعاني الصحيفة من العنوسة والموت.. لا كبرياء مع الصحافة الإلكترونية.. لعل هذا ما سنخطه يوما على صدر صفحاتنا الأولى لطبعتها الأخيرة بنوع من الغيض والأسى: «نعم سنموت، فتمتعوا بهواتفكم النتنة أو البليدة».

لقد آن الأوان لتبحث الجرائد المطبوعة عن جنازة تليق بها في زمن الرقمنة والعمل عن بعد، وتقلص مساحة التعامل مع الورق في الإدارات وفي الحياة اليومية، فهذا هو المستقبل.. ومن يريد معاندة هذا الواقع المؤسف حقا، سيجد نفسه ينتج منتوجا لا يشتريه أحد، والاستنجاد بالدولة قد يؤجل الموت الوشيك لا غير.... والحل الجذري يتجاوز تسول الدولة التي لها إكراهات أخطر من التفكير في دعم الصحافة الورقية إلى حين الأجل المحتوم فقط، بل يستدعي فتح نقاش حقيقي بإشراك المعلنين والوزارة الوصية وكل من يتدخل في صناعة الصحافة الورقية بما فيها المطابع وشركات التوزيع... لقد كنا نسير بخطى حثيثة نحو نهاية المطبوعات وظللنا فقط كمن يعتقد بوجود قوة قدرية يمكن أن تنقذ ما تبقى من أوفياء هذه الصحافة.. لكن اليوم مع وباء كورونا، انتهى كل شيء وبشكل غير مسبوق وبيننا الأيام!

لقد سيطر العمالقة القادمون من وادي السليكون: غوغل، فايسبوك، تويتر ويوتوب... على سوق إنتاج الأخبار وتسويقها واستقطاب الزوار والمشاهدين بالملايين، ومعها بدأوا يقتلون جزءا كبيرا من الصحافة المهنية لأنهم «لا يفتقرون فقط إلى شغف الأخبار، ولكن يتجنبون بنشاط مسؤوليات الناشر» فيما ينشرونه على خلاف الأخلاقيات المؤطرة للفعل الصحافي، إنها بالفعل خسارة كبرى أن يساهم فيروس كورونا في تهشيم مرآة المجتمع التي يرى فيها نفسه، لأن لكل واحد اليوم مرآة هاتفه النقال، يقول الصحافي الأمريكي دوغلاس ماكلينان مؤسس ومحرر Arts Journal وجاك مايلز الحائز على جائزة بوليتزر في مقال لهما بجريدة الواشنطن بوست: «لأجيال عديدة، أطلقت العديد من الصحف على نفسها اسم المرآة The Mirror أو المرآة اليومية The Daily Mirror أو مرآة مدينتنا The Hometown Mirror أو ما شابه.. تخيل منزلك بدون مرآة أو أي مرآة بديلة، مثل كاميرا الهاتف المحمول. تخيل أنك لا تستطيع أن ترى انعكاسك الخاص. تخيل الآن أن بلدك فقد مرآته الوطنية، ولا يمكنك أبدًا رؤية انعكاس صادق لما يبدو عليه». وستكون النتيجة أسوأ بكثير مما نتخيل، فقد ظل توماس جيفرسون يؤمن أن الصحف مؤسسة ديمقراطية أساسية لدرجة أنها كانت البديل الوحيد للثورات العنيفة المتكررة: «إن هذا الرقيب الهائل للموظفين العموميين، من خلال استدعائهم اليومي إلى محكمة الرأي العام، ينتج إصلاحًا سلميًا، والذي كان مفترضا أن يتم من خلال ثورة.»

واقع الصحافة الورقية اليوم أسِمهُ بسِمة الاحتضار، إن الصحفيين الذين يعملون بالصحافة الورقية يعيشون وضعا صعبا مع ظهور الحامل الإلكتروني ليس في المغرب وحده، بل على المستوى الدولي، إنه قدر أعمى وأحمق الخطى، ذلك أن التطور الذي عرفته الوسائل التكنولوجية الحديثة ووسائط الاتصال الجماهيري، وشيوع الإنترنت التي وصلت إلى أبعد الدواوير في المغرب.. جعل المطبوع بشكل

عام يشهد انتكاسا بينا لا تخطئه العين، وبالتالي يبدو لي أن مدراء نشر الصحف الورقية والصحفيين العاملين بها مثل فرسان دونكيشوتيين، يريدون الموت بشرف في معركة يعرفون أنهم سينهزمون فيها حتما، والدليل وجود صحف عالمية عملاقة اضطرت إلى إغلاق جرائدها المطبوعة.. إنه قدر لا نستطيع أن نغالبه أبدا!

في موطن تقاليد قراءة الصحف الورقية والمطبوعات يحدث النزيف، فقد أنجزت الحكومة الكندية عام 2012 تقريرًا يتكهن بما قد تبدو عليه الديمقراطية في عالم ما بعد الصحف الورقية، وفي بريطانيا حذرت رئيسة الوزراء السابقة تيريزا ماي من أن إغلاق الصحيفة بعد الصحيفة يشكل «خطرا على الديمقراطية».. رغم تقدمها لا زالت الصحافة الإلكترونية موضع شك، لا من طرف الصحافيين التقليديين فقط، بل أيضا لأن التوازن والموضوعية وصياغة الأخبار من المعلومات المتداولة في وادي السليكون بمعايير مهنية لا زال غائبا عند أغلب المواقع الإلكترونية، وكل ما فكرت فيه الدولة هو الجانب الأمني من ترويج الأنباء الزائفة والكاذبة أو تلك التي تضر عميقا بمصالحها، ولم نفكر كمجتمع في أي صحافة إلكترونية نستحقها كمغاربة، لأن الصحافة ستستمر والحامل الورقي هو الذي سينقرض.

الصحافة ابنة عصرها وستظل قائمة، بل إنها تعرف قمة انتشائها الكوني.. فكل شيء يمر بالصحافة، التي أصبحت عصب الاقتصاد والسياسة وشؤون المجتمع والإدارة، إنها قائمة، بل زادت اتساعا، لقد أصبحنا نتكلم عن صحافة مواطنة وصحافة الموبايل، وعن تحول كل مواطن إلى صحافي، فما أن يقع الحدث حتى ترى كل الناس يحملون شاشات هواتفهم ويسجلونه لحظة وقوعه طريا طازجا، ويتداولونه على الفيس بوك وتويتر واليوتوب وباقي مواقع التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية ودمه على خده حتى دون أن يمر من معمل الصياغة الصحافية.

يمر المغرب من تقاليد الشفوي إلى تقاليد التقني/الإلكتروني، دون المرور بتقاليد المقروء، لقد كانت، في الحقيقة، مرحلة ضيقة تلك التي عرفت فيها

الصحافة الورقية ازدهارا، لأن الصحافة المطبوعة كانت صحافة نخبة منذ بدايتها في المغرب، النخبة المتعلمة هي التي كانت تقرأ هذه الصحف، أما الباقي، وبسبب الأمية، فلم يكن يجد إلى المطبوع طريقا، يعني أن هناك ملايين المغاربة ظلوا محرومين من الصحافة الورقية ومن المطبوعات بشكل عام على خلاف الرقمي اليوم.. لم نرسخ بتاتا عادات القراءة والصحافة لم تصل بيوتنا حتى لدى النخب المتعلمة.. إن تقاليد قراءة المطبوعات ذاتها آخذة في التلاشي، وكل يوم نفقد فيه قارئا للصحافة المطبوعة لا نحلم بتعويضه، فجيل اليافعين القادمين لم يكتسبوا تقاليد القراءة الورقية وهم أميل إلى الأنستغرام والسناب شات، إن ميلاد الكائن الرقمي يحدث بيننا ونحن على عتبة توديع الإنسان الجوتنبرغي الذي خُلق مع المطبعة!

أظهر تحليل «تحالف بيو للإعلام المدقق» Pew-Alliance for Audited Media (AAM)، وهو مكتب للتحقق من توزيع الصحف أشبه بojd، أنه في عام 2016 انخفض توزيع المطبوعات بنسبة 10 في المائة - السنة الثامنة عشرة على التوالي من الانخفاض. في الوقت نفسه، نمت الاشتراكات الرقمية بشكل مثير للإعجاب لدى «نيويورك تايمز»، يوجد الآن أكثر من 2.5 مليون اشتراك رقمي بالجريدة.. وقد تنبأ ناشرون بارزون، بمن في ذلك آرثر سولزبيرجر ابن مؤسس صحيفة «نيويورك تايمز»، أنهم يمكنهم رؤية يوم، ليس بعيدًا جدًا، عندما تختفي النسخة المطبوعة... «وعلينا التحول إلى الصحافة الرقمية كحل جوهري.. كل شيء عن مستقبل الصحف مشرق باستثناء مستقبل الإمساك بالجريدة في أيدينا».

أي خطوة نقوم بها لدعم الصحف الورقية هي فقط تأجيل للموت الحتمي، يجب أن نلتفت لدعم حقيقي لمهنية الإعلام الرقمي، وأن نغير من مواد وديداكتيك وبرامج معاهد الصحافة لاستيعاب هذه التحولات، يجب أن نتساءل عن الدور الذي يجب أن تلعبه هذه الصحف التي نتعمد إطالة عمرها بالدعم العمومي، لتعوض

تراجع المبيعات، وانكماش وتقلص سوق الإشهار الذي أصبح يتجه إلى الرقمي/ الديجيتال... يجب أن نفهم أن الصحافة الورقية انتهت، يجب أن نجلس ونتدارس الأمر بموضوعية، هناك أزمة هيكلية وحقيقية.

على المعاهد التي تخرج الصحفيين، أن تُبقي الصحافة الورقية كتراث نبيل وجميل للإنسانية، مثل ما فعلته مطبعة جوتنبرغ مع المخطوطات التي أصبحت نوعا من التحف النادرة، جزءا من التاريخ لن يعود إلى الحياة أبدا، وتنكب على تغيير المخارج التي يأتي منها الصحفيون المهنيون للعمل في الصحافة الرقمية.. لأن لدينا مشاكل حقيقية، مشاكل ذات طابع قانوني، مهني، مادي ومؤسساتي.

كورونا.. برؤية الآخر
في الضفة الأخرى

هكذا ستعيد جائحة كورونا المستجد تشكيل الجغرافيا السياسية..

لا تحلموا بانقلاب وشيك للنظام العالمي

* جوزيف س. ن. جونيور

يجب أن نحتاط من الادعاءات التي تذهب إلى أن وباء كورونا سيغير كل شيء، لن تستفيد الصين وستبقى الولايات المتحدة في الريادة

كيف ستعيد جائحة الفيروس التاجي تشكيل الجغرافيا السياسية؟

يتوقع العديد من المعلقين نهاية حقبة العولمة التي ازدهرت تحت قيادة الولايات المتحدة منذ عام 1945، البعض منهم يتوقع حدوث نقطة تحول حيث تتجاوز الصين الولايات المتحدة كقوة عالمية.. حتما ستكون هناك تغييرات، ولكن يجب على المرء أن يحذر من افتراض أن الأسباب الكبرى لها آثار عظيمة، على سبيل المثال، تسببت جائحة أنفلونزا 1919-1918 في مقتل عدد أكبر من الأشخاص مقارنة بالحرب العالمية الأولى، ولكن التغييرات العالمية المتناسلة التي تكشفت على مدى العقدين التاليين كانت نتيجة للحرب وليس بسبب المرض.

إن العولمة – أو الاعتماد المتبادل عبر القارات- هي نتيجة للتطورات الحاصلة في مجال النقل وتكنولوجيا الاتصالات، التي من المستبعد أن تتوقف.. سيتم تقليص

بعض جوانب العولمة الاقتصادية مثل التجارة لكن التدفقات المالية ستتقلص بحجم أقل. وبينما تتأثر العولمة الاقتصادية بقوانين الحكومات، فإن الجوانب الأخرى للعولمة مثل الأوبئة وتغير المناخ تحددها قوانين البيولوجيا والفيزياء.. لا توقف الحواجز والأسلحة والتعريفات الجمركية آثارها عبر الوطنية، برغم من الركود الاقتصادي العميق والمستمر الذي من شأنه أن يبطئها.

شهد هذا القرن ثلاث أزمات خلال عقدين، لم تقتل هجمات 11 سبتمبر الإرهابية الكثير من الناس، ولكن مثل رياضة «الجوجيتسو»، فإن الإرهاب لعبة يمكن فيها للاعب الأصغر استخدام صدمة الرعب القصوى لخلق تأثير غير متناسب على أجندة الخصم.. كانت السياسة الخارجية الأمريكية مشوشة بعمق بسبب الخيارات التي تم اتخاذها في حالة من الذعر أدت إلى حروب طويلة في أفغانستان والعراق.. الصدمة الثانية، تتمثل في الأزمة المالية لعام 2008، فالركود الاقتصادي الكبير الذي جلبته، تسبب في بروز الشعبوية في الديمقراطيات الغربية، وعزز قوة الحركات الاستبدادية في العديد من البلدان.. وتتناقض حزمة التحفيز الصينية الضخمة والسريعة والناجحة مقارنة مع استجابة الغرب المتخلفة، مما دفع الكثيرين إلى التنبؤ بأن الصين في طريقها لتصبح رائدة الاقتصاد العالمي.

الاستجابات الأولية للأزمة الثالثة في القرن، وباء فيروس كورونا المستجد، ذهبت أيضًا في المسار الخاطئ.. بدأ كل من الرئيس الصيني شي جين بينغ والرئيس الأمريكي دونالد ترامب بالإنكار والتضليل.. وأضاع التأخير والتعتيم وقتًا حاسمًا للاختبار والاحتواء، وتم تبديد فرصة التعاون الدولي. بدلاً من ذلك، بعد فرض عمليات إغلاق الحدود المكلفة، انخرطت القوتان الاقتصاديتان في العالم في حروب دعائية وتبادل التهم.. ألقت الصين اللوم على الجيش الأمريكي الذي اعتبرته السبب في وجود الفيروس في ووهان، وتحدث ترامب عن «الفيروس الصيني».. فيما

ظل الاتحاد الأوروبي، الذي يبلغ اقتصاده تقريباً حجم الولايات المتحدة، مترنحا في مواجهة هذا الانقسام. ومع ذلك، فإن فيروس كوفيد 19 لا يهتم بالحدود ولا بجنسية ضحاياه.

لقد أضر عدم الاستجابة الناجعة للولايات المتحدة في مواجهة فيروس كوفيد 19 بشكل كبير بسمعتها، بينما قدمت الصين المساعدة وتلاعبت بالإحصائيات لأسباب سياسية، وانخرطت في دعاية قوية - كل ذلك في محاولة لتحويل حكاية فشلها المبكر إلى نجاح فعال ضد الوباء- ومع ذلك، تم التعامل بريبة مع الكثير من جهود بكين لاستعادة قوتها الناعمة في أوروبا وأماكن أخرى.. ذلك لأن القوة الناعمة soft power تعتمد على الجاذبية.. فأفضل دعاية ليست دعاية ناجحة بالضرورة.

في مفهوم القوة الناعمة، انطلقت الصين من موقف ضعيف.. على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت منذ أن أعلن الرئيس السابق «هو جين تاو» عن هدف الرفع من القوة الناعمة للبلاد في المؤتمر الوطني السابع عشر للحزب الشيوعي عام 2007، فقد وضعت بكين عقباتها الخاصة من خلال تفاقم النزاعات الإقليمية مع الدول المجاورة وإصرارها على القبضة الحديدية للحزب، وهو ما لا يسمح للمواهب الكاملة للمجتمع من إطلاق العنان لها بالطريقة التي تحدث في الديمقراطيات.. ليس من المستغرب أن تضع استطلاعات الرأي العام العالمي وتصنيفاته، الصين في المرتبة 30 من حيث القوة الناعمة، فيما تحتل الديمقراطيات الغربية المراكز العشرين الأولى في المؤشر.

في ظل «القوة الشديدة» hard power أيضا، لن يغير الوباء التوازن القائم لصالح الولايات المتحدة.. لقد تضرر كل من الاقتصاد الأمريكي والصيني بقوة، مثلما حدث مع اقتصادات الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وحلفاء شرق

آسيا قبل الأزمة، كان الاقتصاد الصيني قد نما إلى ثلثي حجم الولايات المتحدة (مقاسا بأسعار الصرف)، لكن الصين دخلت الأزمة مع تباطؤ معدل النمو وانخفاض الصادرات.. كما تستثمر بكين بشكل كبير في المجال العسكري، لكنها لا تزال بعيدة جدًا عن الولايات المتحدة وقد تتقلص استثماراتها العسكرية في ظل ميزانية جد منخفضة، من بين الأشياء الأخرى التي كشفتها الأزمة هي حاجة الصين إلى نفقات ضخمة على نظام الرعاية الصحية غير الملائم.

إضافة إلى ذلك، تتمتع الولايات المتحدة بمزايا جيو سياسية ستستمر رغم الوباء، الأولى تتمثل في الموقع الجغرافي: تحدها المحيطات وجيرانها الودودون، في حين أن الصين لديها نزاعات إقليمية مع بروناي والهند وإندونيسيا واليابان وماليزيا والفلبين وتايوان وفيتنام. الميزة الثانية هي الطاقة: لقد حولت ثورة النفط والغاز الصخري الولايات المتحدة من مستورد للطاقة إلى مصدر صافي. من ناحية أخرى، تعتمد الصين بشكل كبير على واردات الطاقة التي تمر عبر الخليج الفارسي والمحيط الهندي، حيث تتمتع الولايات المتحدة بالتفوق البحري.

تتمتع الولايات المتحدة أيضًا بمزايا ديموغرافية: على مدى العقد ونصف العقد الأخير، وفقًا لبحث أجراه أديل هيوتين من جامعة ستانفورد، من المرجح أن تنمو القوى العاملة الأمريكية بنسبة 5 في المائة، بينما ستتقلص في الصين بنسبة 9 في المائة، ويرجع ذلك أساسًا إلى سياسة الطفل الواحد السابقة.. بلغ عدد السكان في سن العمل في الصين ذروته عام 2015، وسوف تمر الهند قريبًا بالصين كأكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان.. ولا نحتاج إلى تكرار أن القوة الأمريكية آتية أيضًا من موقعها في طليعة تطوير التقنيات الرئيسية بما في ذلك التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا النانو وتكنولوجيا المعلومات.. إذ تهيمن جامعات الأبحاث الأمريكية والغربية الأخرى على التعليم العالي.

وكل هذا يشير إلى أنه من غير المحتمل أن تُحدث جائحة كوفيد 19 نقطة تحول جيو سياسي، ولكن في الوقت الذي تستمر الولايات المتحدة في الاحتفاظ بمعظم الأوراق الرابحة، فإن القرارات السياسية المضللة قد تجعلها تلعب هذه الأوراق بشكل سيئ. إن التخلص من آفاق التحالفات والمؤسسات الدولية سيكون أحد القرارات الخاطئة.. إضافة إلى تقييد صارم للهجرة.. قبل هذه الأزمة بوقت طويل، عندما سألت رئيس الوزراء السنغافوري السابق «لي كوان يو»: لماذا لا يعتقد أن الصين ستتفوق على الولايات المتحدة كقوة عالمية في أي وقت قريب؟ أحد الأسباب التي استشهد بها هي قدرة الولايات المتحدة على الاستفادة من مواهب العالم كله وإعادة تجميعهم في بوتقة التنوع والإبداع.. نظرًا لقومية «هان» العرقية (مجموعة هان الإثنية هي إحدى القوميات التي يتكون منها الشعب الصيني وتمثل حوالي 92% منه)، سيكون هذا النوع من الانفتاح مستحيلًا على الصين.. ولكن إذا قادت الشعبوية الولايات المتحدة إلى التخلص من أوراقها الثمينة من التحالفات والمؤسسات الدولية والانفتاح، فقد يكون «لي» على خطأ.

بدلاً من ذلك، قد تأخذ إدارة أمريكية جديدة تلميحاتها من الرؤساء الأمريكيين بعد عام 1945 الذين وصفت نجاحاتهم في كتابي «هل تجدي الأخلاق نفعا؟ الرؤساء والسياسة الخارجية من روزفلت إلى ترامب».. يمكن للولايات المتحدة أن تطلق برنامج مساعدات كوفيد 19 الضخم- نسخة طبية من خطة مارشال، كما أعلن وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر مؤخرًا، يجب على القادة اختيار مسار التعاون الذي يؤدي إلى المرونة الدولية.. بدلاً من التنافس في الدعاية، يمكن للقادة التعبير عن أهمية الحكم مع الآخرين بدلاً من التحكم في الآخرين ووضع أطر ثنائية ومتعددة الأطراف لتعزيز التعاون.

يجب على الدول الغنية أن تدرك أن الموجات المتكررة من كوفيد 19 ستؤثر على الدول الأكثر فقراً، الأقل قدرة على التكيف، وأن مثل هذا الخزان في العالم

النامي سيؤذي الجميع إذا امتد شمالاً في عودة موسمية.. حدث هذا عام 1918، عندما قتلت الموجة الثانية من الوباء عددًا أكبر من الأشخاص من الموجة الأولى، فسواء بدوافع تتعلق بمصالح ذاتية أو لأسباب إنسانية، يجب على الولايات المتحدة قيادة مجموعة العشرين بمساهمات سخية في صندوق كوفيد 19 الرئيسي الجديد المفتوح لجميع البلدان.

إذا اختار رئيس أمريكي مثل هذه السياسات التعاونية والمعززة للقوة الناعمة، فقد يخرج من هذا الوباء شيء جيد – مسار جيو سياسي نحو عالم أفضل- أما إذا استمرت سياسات الولايات المتحدة على خط المسار الحالي، فإن فيروس كورونا المستجد سيسرع ببساطة الاتجاهات الحالية نحو الشعبوية، القومية والاستبداد. ولكن لا يزال من السابق لأوانه التكهن بنقطة تحول جيو سياسي من شأنه أن يغير جذريًا علاقات القوة بين الولايات المتحدة والصين.

* جوزيف س. ناي جونيور هو أستاذ مبرز في جامعة هارفارد ومؤلف كتاب «هل تجدي الأخلاق نفعا؟ الرؤساء والسياسة الخارجية من روزفلت إلى ترامب».

عن مجلة «فورين بوليسي»

https://foreignpolicy.com/2020/04/16/coronavirus-pandemic-china-united-states-power-competition/

كل عصر يصاب بالأمراض المعدية التي تناسبه

الفيروس التاجي يسرع عجلة التاريخ نحو نقطة الانهيار

* مؤرخ الأوبئة الأمريكي كيل هاربر

نشر العالم العربي ورجل الدولة المتقاعد ابن خلدون عام 1377م كتابه الشهير «المقدمة»-الموسوم ب«تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»- لدراسة تاريخ العالم.. لم تكن أهدافه متواضعة، وقد قادته دراساته العميقة وحتى رحلاته الواسعة النطاق إلى الاستنتاج بأن هناك قوانين علمية للديناميكيات الاجتماعية، وكان ينوي استخدام كتابه لوضع نظرية شاملة للحضارة الإنسانية.

كان الإسهام الأصيل في مقدمته هو مفهوم العصبية أو التضامن الجماعي، بالنسبة لابن خلدون، فقد ظل النمط الأساسي للعمران البشري هو القرابة أو النسب، صعود الحضارات وسقوطها، والعصبية- الإحساس بالهدف المشترك والتماسك الاجتماعي- كانت مصدر السلطة الذي سمح بالعمل الجماعي خلال مرحلة نمو الأسرة الحاكمة لعشيرة أو حضارة. ومع ذلك، فإن النجاح والازدهار بدورهما، عملا على تقويض الشعور بالتضامن الذي سمح لمجموعة واحدة بالارتقاء إلى السلطة.. ففسدت الحضارات حتمًا ومن الداخل.

طور ابن خلدون نظرية رائدة للتحول التاريخي، تجمع بين العلوم الاجتماعية والسياسية والديناميكيات الاقتصادية والديمغرافية - وبشكل ملحوظ، توقع المؤرخ العربي كيف يمكن دمج الأمراض المعدية في صلب هذا التغيير- لقد عاش مرحلة الطاعون أو الموت الأسود، وعدّها اعتمادا على العديد من المقاييس أسوأ كارثة بيولوجية في تاريخ البشرية.. بالنسبة لابن خلدون، كان الوباء جزءًا لا يتجزأ من الانهيار الحضاري، لكن الأوبئة لم تكن مجرد أعمال عشوائية من الله أو الطبيعة، بل كانت ظاهرة قابلة للتفسير العقلاني. قد يكون الوباء نتيجة النمو السكاني نفسه، فوجود حضارة قوية مع حكومة جيدة من شأنه أن يسهل الزيادة في عدد السكان، ولكن من المفارقات أن الارتفاع السكاني سيؤدي إلى أمراض وبائية قاتلة وتفكك اجتماعي.

إن جائحة كوفيد 19 ليست هي وباء الطاعون أو الموت الأسود، وبالتأكيد لم يكن ابن خلدون اختصاصيًا في علم الأوبئة، ولكن مثل سقوط جدار برلين أو انهيار البرجين التوأمين في 11 سبتمبر، هناك شعور جماعي لا لُبس فيه أننا نعيش منعطفا تاريخيا، وفي مثل هذه الأوقات، ننتقل حتمًا إلى الماضي بحثًا عن الأنماط.. ليست العلوم الطبية والنماذج الاقتصادية وحدها هي التي تقدم إجابات لهذه اللحظة، يمكن أن يعلمنا التاريخ أيضًا أسباب جائحة كوفيد 19 وعواقبها المحتملة.

على مر التاريخ، كانت الأحداث الوبائية دائما مصاحبة للصدفة والبنية معا.. إنها أحداث مصادفة لأنها، على سبيل المثال، تنشأ عندما تنتقل الكائنات الحية الدقيقة المسببة للأمراض- الفيروسات والبكتيريا والأوالي protozoa- من نوع إلى آخر، عندما تعزز الطفرات الجينية العشوائية بشكل أعمى انتقال أو انتشار الجراثيم، أو عندما تتوافق التفاعلات العرضية بين المجموعات البشرية لتسهيل الانتشار السريع للأمراض المعدية. ونتيجة لذلك، ظهرت الأوبئة في كثير من الأحيان للمراقبين كأحداث عشوائية تأتي من العدم، أو من التدخلات الفعلية

لله لضرب المثل لعباده.. ظلت مثل هذه الصدمات البيولوجية كقوة مستمرة من الاضطراب في تاريخ البشرية- تدمير الإمبراطوريات، الإطاحة بالاقتصادات وإفساد عدد كبير من السكان... خاصة عندما تثار أو تتزامن مع أزمات أخرى- أزمات مناخية، أزمات شرعية، أزمات نقدية وصراع مسلح- فإنها تشير إلى لحظات التحول أو إعادة توجيه مجرى التاريخ.

عند النظر إليها على نطاق زمني أطول، فإن الأحداث الوبائية لها إيقاع وسبب.. بمعنى ما، كل عصر يصاب بالأمراض المعدية التي يستحقها، من الناحية البيئية لا الأخلاقية، تجمع الأمراض البشرية هو نتاج البيئة والتطور العمراني.. هناك حوالي 400-300 نوع رئيسي من مسببات الأمراض البشرية، بالمقارنة مع الشمبانزي، أقرب أقربائنا الباقين على قيد الحياة، فإن جراثيم البشرية عديدة وسيئة، وتركز بشكل غير عادي على استغلالنا.. فمجموعة الأمراض البشرية المتميزة هي نتيجة لتاريخنا المميز- للطرق الخاصة التي أعددنا فيها نحن كنوع- الظروف البيئية على الأرض وجعلنا أنفسنا هدفًا جذابًا بشكل غير عادي لاستضافة الطفيليات الميكروبية.

تم التعبير عن هذه النظرة البيئية للأمراض المعدية ونشرها منذ جيل من قبل المؤرخ العالمي العظيم ويليام ماكنيل.. لقد تعلمنا الكثير في هذه الأثناء عن أصول تطور الأمراض البشرية، لكن الإطار لا يزال سليماً.. على سبيل المثال، سبب إصابة البشر بالكثير من أمراض الجهاز الهضمي هو أنه منذ حوالي 12000عام، بدأنا نعيش في مستوطنات مكتظة باستمرار وبالتالي كنا محاطين بنفاياتنا، ناهيك عن نفايات حيواناتنا المليئة بمسببات الأمراض المنقولة بالطريق البرازي والفموي.. السبب الذي يجعل البشر يعانون من الكثير من أمراض الجهاز التنفسي لأن لدينا أعدادًا هائلة من السكان وكثافة كبيرة لدعم مسببات الأمراض التي تتمثل إستراتيجيتها في الانتقال من الرئة إلى الرئة.. في العالم القديم أولاً ثم

بعدها في العالم الجديد، جلبت العولمة المبكرة مجموعات بشرية مختلفة- ومعها جراثيمها- في احتكاك كانت نتائجه الانتشار السريع.

على مدى التاريخ المدون، ظلت الأوبئة والجوائح مصدرًا هائلاً لعدم استقرار الإنسانية.. وفي ظل جائحة كوفيد 19، يجدر بنا التذكير بحجم بعض الأحداث المرضية السابقة- ومرونة المجتمعات البشرية عندما تواجه كارثة بيولوجية.. كان الموت الأسود جائحة للطاعون الدبلي، وهو مرض مروع تسببه بكتيريا «اليرسينيا الطاعونية». فالطاعون الدبلي في الحقيقة مرض تنقله البراغيث من القوارض، وقد أقام باستمرار في أحضان مستوطنات القوارض في آسيا الوسطى.. التي تسللت، على مر التاريخ، بشكل متكرر من جحورها لتسبب الأوبئة البشرية الضخمة التي هي في الواقع الآثار الجانبية لأمراض البانزوتيك الضخمة بنفس قدر الأوبئة الحيوانية، في هذه الحالة بشكل رئيسي من الجرذان.

اجتاح الوباء في القرن الرابع عشر الشرق الأدنى وأجزاء رئيسية من أفريقيا وأوروبا كلها. خطف الموت الأسود حوالي نصف سكان القارات بأكملها، ثم تكرر بشكل متقطع مرة أو مرتين خلال جيل لقرون عديدة. يعتبر الطاعون الدبلي من الأمراض المنعزلة، ولكن الأمراض الأخرى مثل الجدري والحصبة والأنفلونزا والحمى الصفراء والملاريا كانت مسؤولة عن دمار غير عادي، بحيث تبدو جائحة كوفيد 19 ضئيلة مقارنة مع حجم هذه الوحوش التاريخية.

كانت أوبئة ما قبل الحداثة مدمرة لأن المجتمعات غير المعاصرة ظلت عرضة بشكل خاص لأزمات الوفيات وآثارها الديموغرافية. ظلت مجتمعات ما قبل الصناعة فقيرة بشكل عام؛ وظل البشر الذين يعيشون بالقرب من مستوى الكفاف الأكثر عرضة للإصابة بالأمراض المعدية.. علاوة على ذلك، افتقرت هذه المجتمعات إلى نظرية الجراثيم، وكان لديها عدد قليل من الاستجابات أو العلاجات

المفيدة طبيا للأمراض المعدية.. في حين أن التدخلات غير الصيدلانية مثل الصحة العامة البدائية تمتد جذورها في العصور الوسطى، والحجر الصحي الذي تم تطويره تدريجيًا استجابة للطاعون، حتى المجتمعات التي كانت على حافة التطور الاقتصادي قبل القرن الثامن عشر لم يكن بوسعها أبدا التخفيف من آثار الأمراض الوبائية.. لكنها كانت قادرة على الانتعاش من أزمات الوفيات، التي كانت غير متوقعة ولكن لا مفر منها.

عانت الإمبراطورية الرومانية من جائحة خطيرة في عهد ماركوس أوريليوس، في أواخر 160م؛ ربما (ولكن ليس من المؤكد) بسبب ظهور فيروس الجدري، بدا قاسيا أن يكون ذلك إيذانا بنهاية الإمبراطورية، أو تأمل تكرار الطاعون الدبلي في القرن السابع عشر.. لقد ظل الطاعون حقيقة لا جدال فيها فيما وصف بعصر «الأزمة العالمية»، وهي فترة كانت من نواح عديدة بوتقة الحداثة.. وتعرضت بعض المجتمعات، مثل إيطاليا، للضرب بالطاعون وفقدت مركزها القيادي إلى الأبد؛ فيما تعرضت مجتمعات أخرى، مثل إنجلترا، لضربات وبائية شديدة (20 في المائة من سكان لندن ماتوا من وباء الطاعون الرئيسي عام 1625)، وتمكنت من الاستقرار والحفاظ على ديناميكية اقتصادية.

إن السيطرة على الأمراض المعدية هي السمة المميزة للتحديث، حيث عملت المعرفة والتكنولوجيا والسياسة على حماية البشرية من أسوأ ويلات وفيات الأوبئة التي كانت جزءًا لا يتجزأ من تاريخنا. أولاً، ابتداءً من القرن الثامن عشر، تم تجاوز أحداث الوفيات الأكثر تطرفاً.. خفضت العلوم الزراعية والسياسة العامة من حدوث المجاعة وشدتها؛ خنق التلقيح مرض الجدري، حد الحجر الصحي من انتشار العدوى بلا قيود.. حتى في الوقت الذي لا يزال فيه معظم الناس يموتون من الأمراض المعدية، فقد قللت المجتمعات الحديثة من حجم أحداث الوفيات الشديدة.. من المحتمل أنه لم يسبق لأي مجتمع حديث تمامًا أن شهد حدثًا للوفاة

من نوع البجعة السوداء (نظرية تُشير إلى صعوبة التنبؤ بالأحداث المفاجئة. تقوم على الفكرة السائدة بأن البجع كله أبيض أما وجود البجع الأسود فهو نادر ومفاجئ) مثل الموت الأسود.. بالطبع، هذا لا يضمن أن مثل هذا الحدث لن يقع أبدًا مرة أخرى؛ بضع مئات من السنين ليست حجم عينة زمنية موثوق بها، لكن هذا النمط يشير بالفعل إلى أن لدينا مزيجًا من الأدوات الصيدلانية وغير الصيدلانية لوقف أحداث الوفيات الجامحة من التصاعد الكامل.

ثانيًا، منذ أواخر القرن التاسع عشر، بدأت الأمراض المعدية تفسح المجال أمام اضطرابات القلب والأوعية الدموية والسرطانات باعتبارها الأسباب الرئيسية للوفاة.. في أواخر عام 1900، كانت معظم الوفيات في الولايات المتحدة لا تزال بسبب الأمراض المعدية، ولكن ذلك تغير بسرعة مذهلة.. كانت الأسباب متعددة: تغذية أفضل، تحسين الصرف الصحي والنظافة، وبروز مجموعة من اللقاحات والمضادات الحيوية تشمل الترسانة الحديثة من الأسلحة البشرية ضد الميكروبات المعدية.

أن تكون شخصًا عصريًا في العالم المتقدم يعني قضاء معظم أيامك دون خوف من الموت بسبب العدوى (على الرغم من أنه يجب أن نستحضر بأن الإسهال والملاريا والسل وغيرها من الأمراض التي لا تزال تطارد المجتمعات المتخلفة، هي جزء من خطرنا الجماعي). وتبدو الأوبئة والجدري بعيدة عن ذهننا، بينما هي ليست كذلك ..حتى في المجتمعات المتقدمة جدا، سيكون من الأكثر دقة القول إن الأمراض المعدية قد تم السيطرة عليها ولكن لم يتم القضاء عليها، إنها تهديد قائم لا يمكن إخماده أبداً.

يمكننا تأطير التاريخ الحديث للأمراض المعدية بالإشارة إلى مصطلح يستخدم بشكل متزايد لوصف كوكب الأرض في عصر الهيمنة البشرية: الأنثروبوسين (هو

حقبة مقترحة يعود تاريخها إلى بداية التأثير البشري الكبير على جيولوجيا الأرض والنظم الإيكولوجية).

لقد تم تيسير وتحديد الأنثروبوسين من خلال جهود البشرية لتطهير الكوكب لجعله قابلاً للسكن بشكل مريح للبشر.. بينما نحن نعيش في بيئات جد مصطنعة، تم إنشاؤها بدقة للحفاظ على جراثيمنا.. وقلما نتوقف عادة للتفكير في ذلك، إن بيئاتنا المشيدة وإدارتنا للغذاء والماء والنفايات وروتيناتنا الفيزيائية وأنظمتنا الكيميائية- كلها عوامل مُمْرضة.. يخلق هذا النمط ضغوطًا مكثفة غير متوازنة، يتزايد عدد سكان العالم نحو 8 مليارات نسمة. نحن ننتهك بشكل غير مسبوق البيئة الطبيعية والحيوانات البرية التي هي مستودع المصدر المحتمل للأمراض الجديدة. نحن مترابطون أكثر من أي وقت مضى.. التفاعل بين جنسنا والطفيليات المحتملة أشد من أي مرحلة في الماضي البشري، لم يكن حافز الميكروبات لاستغلال البشر أكبر مما هو عليه اليوم، ولكن أدواتنا لمكافحتها أقوى أيضا.. نحن نعيش وسط هذه المواجهة المضطربة وغير المستقرة.

من المفارقات أن ظهور الأمراض المعدية قد يتسارع في الأنثروبوسين، معظم هذه الأمراض المعدية الناشئة هي تهديدات سريعة الزوال أو يتم التحكم فيها بسرعة، ولكن حتى مع الصحة العامة المتقدمة والطب الحيوي، هناك ثغرات في دروع مقاومتنا تجعلنا عرضة لاختلالات أكبر.. فيروس نقص المناعة البشرية هو فيروس ارتجاعي، مرض بشكل شيطاني ظهر وانتشر على مستوى العالم مع تأثير مدمر، الأنفلونزا هي ناقل شنيع ومخاتل يصعب على خزانات الطيور والجينوم المجزأ مواجهته.. وفي نهاية المطاف، كان من المتوقع أن تشكل عائلة فيروس كوفيد 19 واحدة من أكثر الأخطار التي تلوح في الأفق على صحة الإنسان.. لقد عرف الخبراء في مجال الأمراض المعدية هذا الأمر منذ أكثر من عقد من الزمان، ولكن بطبيعة الحال، استغرقت نبوءاتهم المعاناة الحالية للفت الانتباه الذي

تستحقه.. يمتلك الفيروس الجديد الخصائص المناسبة فقط لاستغلال نقاط ضعفنا.. هو فيروس تنفسي مع فترة حضانة طويلة وانتقال خبيث، وحمل بدون أعراض، معدي للغاية ولم يكن لدينا لقاح جاهز.. إنه الوباء الذي نستحقه ليس أخلاقيا ولكن بيئيا.

والآن نعاني من العواقب، معظمها لا يزال مجهولاً.. كمؤرخ للأوبئة، ما أجده أكثر وضوحًا في وسائل الإعلام ليس مقارنة مع الماضي بل في الاختلافات المصاحبة. بصراحة، يمكن أن تكون ضراوة العامل المسبب للوباء أسوأ بكثير، وربما يكون المرض التالي أسوأ. لكن من الواضح بالفعل أن هذا الفيروس، الذي سيؤدي إلى وفيات نسبية أقل بكثير من الأوبئة العظيمة في التاريخ، ستكون له أصداء كبيرة.. إن التأثير الاجتماعي والاقتصادي، وربما الجيو سياسي لفيروس كوفيد 19 سيطغى على جائحة أنفلونزا 1918 الأشد فتكًا.. يضرب هذا المرض الجديد في قلب نظامنا العالمي المترابط، فهو يفتح آفاقا جديدة: إنه أول جائحة عالمية في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، عصر الاستقطاب الثقافي والسياسي لدينا، وبالتالي، له جماليته الخاصة وشعوره المتميز. إنه تحد اقتصادي جديد بطرق عديدة.. أسواق عملنا عالية الكفاءة تعتمد بشكل كبير على الوظائف الكبرى؛ سلاسل التوريد الطويلة والمعقدة وفي الوقت المناسب- اقتصادنا عالي القيمة مع الاعتماد الشديد على ديون المستهلكين والشركات والديون السيادية- لم يواجه أي من هذه الأنظمة اضطرابًا مثل جائحة كوفيد 19.

في بعض الأحيان تُسرع الأوبئة ببساطة التاريخ أو تكشف إلى أين نحن ذاهبون بالفعل، بينما أحيانا أخرى تغير جذريًا مسار المجتمعات البشرية.. في القرن الثالث، عانت الإمبراطورية الرومانية من وباء يعرف باسم طاعون قبرص، كان جزءًا من أزمة دستورية ومالية متعددة الأوجه غيرت أوضاع الدولة الرومانية بشكل كبير وتسببت في ضعف مهول للموقع الجيو سياسي للرومان تجاه الفرس

والشعوب الجرمانية، ولكن إلى حد ما، كانت هذه التغييرات مرئية قبل الوباء، الذي عجل بها على طول.. على النقيض من ذلك، كان الموت الأسود ضربة من نرد التاريخ؛ أعاد حدث الوفيات الكبير تعديل النظام الجيو سياسي بطرق كان من الصعب تصورها.

سنحتاج إلى وقت ومنظور لفرز السبل التي سيغير بها هذا الوباء عالمنا. (يفضل المؤرخون بالطبع المسافة والمنظور). لكن الشعور بأننا نشاهد بعض طبقات نسيجنا الاجتماعي تنفصل ليس خطأً، ويذكرنا ماضينا بأن الصدمات البيولوجية غالبًا ما تتزامن مع لحظات التحول والتغيير وأحيانا التقدم.

مجلة فورين بوليسي

https://foreignpolicy.com/2020/04/06/coronavirus_is_accelerating_history_past_the_breaking_point/?utm_source=PostUp&utm_medium=email&utm_&campaign=20802&utm_term=Editors%20Picks%20OC

لماذا يتجاهل السياسيون توقعات الكوارث؟

يرى الخبراء كارثة تلوح في الأفق، لكن لا أحد من القادة السياسيين يرغب في دفع التكاليف مسبقًا

* ملكا أولدر

غالبًا ما يتم وسم الكوارث على أنها أحداث تأتي من فراغ، لكن معظم الكوارث كانت متوقعة على الأقل من قبل البعض، يعرف مدراء الكوارث والباحثون ما هي أكبر المخاطر ويمكنهم تخيل كيفية التعامل معها.. ويرجع هذا جزئيًا إلى أن العديدين، كما يمكن أن تلاحظوا، يجيدون فعلًا تخيل الأشياء السيئة التي ستحدث بتفاصيل مؤلمة.. ولكن الأهم من هذا، هو أن هناك أعدادا واسعة من الأشخاص الذين يدرسون علم الزلازل وعلم الأوبئة والأرصاد الجوية وعلم الاجتماع والمجالات الأخرى التي تتعامل مع المخاطر والكوارث. ويظهر غالبا، كيف تم تصور الكارثة ونمذجتها بدقة مذهلة قبل وقت طويل من وقوعها.. خذ مثلا إعصار بام، وهو تمرين محاكاة تم إجراؤه في «نيو أورليانز» قبل عام تقريبًا من إعصار كاترينا، والذي تضمن معظم المشكلات التي قد تسببها العاصفة الحقيقية.. أو مشروع 2016 من قبل تكساس تريبيون و ProPublic برو بوبليك وكيف تنبآ بالدمار الذي سيسببه إعصار هارفي عام 2017 أو زلزال بالو عام 2018.

وهو نفسه ما حدث مع الأوبئة.. لقد عرف العلماء منذ قرن على الأقل، منذ جائحة الأنفلونزا الإسبانية عام 1918، مخاطر المرض في عالم معولم حيث ممكن للفيروس أن يقفز من سوق قرية صغيرة إلى مدن كبرى متصلة métro-

polis على الجانب الآخر من العالم في غضون أيام، وذكّر تفشي مرض السارس وإنفلونزا الخنازير الحكومات والمنظمات غير الحكومية والشركات بوجوب تحديث خططها لإدارة الأوبئة والتغلب عليها.. وأجرت وزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية سلسلة من التمارين حول سيناريو الوباء في وقت سابق من عام 2019.

لذا، إذا كنا نعرف ما يدعو للقلق، فلماذا تبدو استجابة العديد من البلدان سيئة للغاية في التعامل مع الكوارث؟

الجواب الأول المهم هو أن العديد من هذه التنبؤات تساعد عمليا في مواجهة الكوارث، خاصة في البلدان التي تأخذها على محمل الجد، فالخبرة المكتسبة من فيروس السارس ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسية وأنفلونزا الخنازير جعلت دول شرق آسيا بشكل عام أكثر قدرة على مواجهة فيروس كورونا المستجد.. لقد أظهرت توقعات إعصار بام وعيًا بما سيُحدثه من مخاطر في نيو أورليانز، بل وسلطت الضوء على مكامن المشاكل التي لم يفكر فيها المسؤولون، مثل صعوبة إجلاء الأشخاص الذين لا يملكون سيارات.. لم يتم تجاهلها بالكامل، إذ وجد تقرير مجلس الشيوخ عن كاترينا أنه على الرغم من أن الخطط التي يتم تطويرها من خلال إعصار بام لم تنته في الوقت المناسب لكاترينا، «أخذ بعض المسؤولين المبادرة لاستخدام المفاهيم التي تم تطويرها في المسودات، بنجاح ممزوج».. المشكلة ليست في معرفة ما يجب فعله، وإنما في الفعل ذاته والاستعداد لدفع تكلفة ذلك قبل فوات الأوان.

إن المشكلة غالبا، كما يوضح مثال إعصار كاترينا، تكمن في التدخل الناجع في الوقت المناسب.. لأنه في الوقت الذي نعرف الكثير عن الكوارث المحتملة: أين ستحدث؟ وماذا ستخلف؟ وما هي الكوارث التي ستكون أكثر تأثيرا من غيرها؟ فإننا لا نعرف متى ستقع..

نتوقع الكوارث وفق احتمالات غير مفهومة أو نطاقات غامضة على مدى عقود أو حتى قرون، مثل «فيضانات 500 سنة».. وقد دفع عدم اليقين هذا صانعي القرار إلى تأجيل الاستعداد للكوارث، والتي أظهرت الدراسات أن لها عائدًا كبيرًا على الاستثمار في توفير الوقت والمال أثناء الاستجابات الناجعة.. يمكن للقادة أن يأملوا بعقلانية إلى حد ما أن الكارثة المتوقعة ستضرب خلال فترة ولاية شخص آخر فيوجهون الميزانيات المرصودة لها نحو أهداف أكثر وضوحًا.

ومع ذلك، لا يتعلق الأمر فقط بالأموال.. فبالنسبة للعديد من الكوارث، يعني الإعداد الفعال اتخاذ قرارات لا تحظى بشعبية: إخبار الناس أنهم لا يستطيعون البناء أو العيش في سهول الفيضانات أو على الساحل، وإعطاء الأولوية للأراضي الرطبة على الصناعة، وتقييد التنقل... أخبرني مدير الطوارئ من كيسنوما باليابان، حيث تسبب النفط المتسرب من خزانات الوقود بالميناء في حريق جد مدمر في أعقاب كارثة تسونامي عام 2011، أنه لم يقتصر الأمر فقط على تجاهل اختصاصاته الولائية في هذا الخطر، بل واصلت خزانات النفط عملها بمحاذاة ساحل اليابان.. ورغم معرفتها بحجم خطورة ذلك، ظلت الحكومة مترددة في تقييد هذا النشاط الاقتصادي.

هذا أسطع وأصدق مثال عن الكوارث المتوقعة وتغير المناخ.. نعلم ما يتعين علينا القيام به، أو ما يتحتم علينا التوقف عن فعله لمواجهة التهديد، ومع ذلك فإننا نتظاهر بأن هذه ليست مشكلتنا، وأنه يمكن تركها لوقت لاحق، ويمكن أن يقوم شخص آخر- سواء في بلد آخر أو جيل قادم- بالتغييرات الضرورية ودفع تكاليفها بالدولار أو بالقلق وغياب الراحة. تظهر إحدى الدراسات أن دولارًا واحدًا يتم إنفاقه على التأهب للمخاطر يخفف ما متوسطه 15 دولارًا من الأضرار لاحقًا- لكن الناخبين سيكافئون الإنفاق على التخفيف من حدة الكوارث بعد وقوعها وليس على الاستعداد للكوارث قبل حدوثها.

حدث هذا مع موجة تلو أخرى من جائحة كوفيد 19، فحتى بعد رؤيتها تتفشى في مكان آخر، ورغم الاستيعاب العقلاني الذي تحتاجه الدول للتصرف قبل أن تشعر بالتأثير، لا يزال هناك تأخر وتردد.

إن ممانعتنا في الإيمان بالكوارث تزداد سوءًا من خلال الطريقة التي نتعامل بها مع كل كارثة، بعد وقوعها، على أنها الكارثة الوحيدة.. التقارير الحكومية والمقالات الإعلامية على حد سواء مرصعة بكلمات غير مسبوقة ولا يمكن تصورها. يفترض أن الغرض من هذه التقارير هو التعلم من الأخطاء (ونادراً ما تحقق النجاح المتوخى) لضمان معالجة الكوارث المستقبلية بشكل أكثر نجاعة.. ولكن، مثل تمارين المحاكاة والاحتمالات، نادرًا ما يتم إعطاء تلك الدروس الموثقة بعناية التمويل أو الاهتمام السياسي ليتم تطبيقها. بعد وقوع الكارثة، من المرجح أن يتنفس الناس الصعداء ويعودوا إلى الحياة الطبيعية، وينسون أولئك الذين لا تزال حياتهم تتأثر بالعواقب.. ورغم ذلك وجد مكتب الأمم المتحدة للحد من مخاطر الكوارث أن «القبول العام للحد من مخاطر الكوارث وتخطيط الانتعاش يبلغ ذروته بعد الكارثة».. هذه هي النافذة القصيرة عندما نكون مقتنعين بأن الاضطراب المدمر ممكن ويمكن أن يحدث لنا.. نحن نعلم أن الكوارث ستقع.. بل نعرف حتى كيف وأين ستقع.. فدعونا نطالب قادتنا السياسيين بالبدء في استخدام هذه المعرفة بشكل جيد.

* مالكا أولدر **Malka Older** باحثة بمركز سوسيولوجيا المنظمات ومؤلفة لثلاثية مرموقة من قصص الخيال العلمي المثيرة، بدءًا من«ديمقراطية المعلومة **Infomocracy**»، اشتغلت كباحثة في التكنولوجيا والمخاطر في مجلس كارنيجي للشؤون الدولية، واهتمت بقضايا الكوارث والتنمية والديمقراطية.

عن مجلة «فورين بوليسي»

https://foreignpolicy.com/2020/04/13/why_politicians_ignore_disaster_predictions/

العناية بحفظ الصحة العامة لا تعني التنازل عن حق الخصوصية

* فاين جرينوود

عندما ينتهي الوباء، سيكون العالم فضاءً مختلفًا للغاية وجد حزين.. قد يكون أيضًا أقل حرية، تصبح فيه شركات التكنولوجيا والحكومات قادرة على استخدام البيانات لتعزيز سيطرتها على الشخص العادي، بطرق يصعب حتى تخيلها اليوم. إذا أردنا منع المستفيدين من الجائحة من الوصول إلى تفاصيل أكثر حميمية في حياتنا، فعلينا أن نكون يقظين وأن نتصرف الآن.

أطلقت غوغل عبر شركة Verily (**شقيقة شركة ألفابيت** alphabet) **أداة لفحص فيروس كوفيد** 19.. **حاليا يقدم الموقع، الذي تم تطويره بالتعاون مع ولاية كاليفورنيا في** 16 **مارس الماضي، خدمات اختبار فيروس كوفيد** 19 **في أربع مقاطعات. يبدو الأمر بسيطا للوهلة الأولى، يوجه الموقع المستخدمين من خلال سلسلة من أسئلة الفحص عبر منصة جمع البيانات الصحية لمشروع «بايزلاين»** Project Baseline.. **إذا اعتبرهم النظام الرقمي مؤهلين، يُسمح لهم بتحديد موعد للاختبار المغري لفيروس كوفيد** 19.

هناك مصيدة واحدة فقط، يجب أن يكون لدى المستخدمين حساب لدى غوغل لاستخدام أداة الفحص.. إذا كنت تجلس في المنزل وتتساءل عما إذا كان السعال الذي ينتابك مجرد حساسية موسمية أم فيروس كوفيد 19؟ **فقد تعتقد أن هذا الاختبار يبدو مفيدا.. إنه صفقة، لأن غوغل لم تطلق أداة الفحص الخاصة بها بدافع الإيثار ولسواد عيونك.. إنها تقوم بذلك، جزئيًا على الأقل، لأنها تريد الوصول إلى بياناتك الصحية، كجزء من جهود الشركة المكثفة في الاستثمار في مجال الرعاية الصحية.**

بفضل جائحة كورونا، أصبح للشركة طريقة جديدة للحصول على معلوماتك

بمباركة كل من الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات، أنشأت شركة Verily نظامًا يخير الأشخاص بين مشاركة بياناتهم الصحية مع الشركة، أو عمليا عدم الحصول على اختبار فيروس كورونا المستجد.. هذا ليس خيارًا على الإطلاق، نظرًا لمخاطر عدم الامتثال. وهناك العديد من الطرق التي تُمكن شركة Verily والشركة الأم من استخدام بيانات الرعاية الصحية الخاصة بك.. يشير موقع Verily في الأسئلة الشائعة، إلى أن المعلومات التي يقدمها المستخدمون قد تتم مشاركتها مع قائمة طويلة من الأطراف الأخرى، بمن في ذلك أخصائيو الرعاية الصحية والمختبرات الإكلينيكية ووزارة الصحة العامة بكاليفورنيا، والسلطات الصحية الفيدرالية وحكومات الولايات والسلطات المحلية.. وقد تتم مشاركتها أيضًا مع بعض مزودي الخدمة المشاركين في أداء الخدمات نيابة عن شركةVerily ، بما فيهم غوغل.

على الرغم من أن موقع Verily الإلكتروني يوضح بشكل جلي أن بياناتك «لن يتم دمجها أبدًا مع البيانات المخزنة في منتجات غوغل بدون إذن صريح منك»، فإن هذه الصياغة تعني أن غوغل قد تطلب منك منح هذا الإذن في مرحلة ما مستقبلا، ومن المؤكد أنها ستفعل، لأنها تدرك جيدًا القيمة الهائلة لدمج مجموعة بيانات ضخمة ومختلفة معًا للتوصل إلى رؤى وارتباطات جديدة.. ومن الناحية القانونية لا يوجد الكثير مما يمنع شركة غوغل من دمج مجموعات البيانات هذه معًا. (وعلى الرغم من أن غوغل تسمح لك بحذف بياناتك، فمن غير الواضح كيف سيطبق ذلك في هذه الحالة، ولا عدد الأشخاص الذين يؤمنون بأن ذلك ممكن).

خذها أو اتركها، أو لا تريد حقًا معرفة ما إذا كان السعال الذي ينتابك قد يقتلك؟

قد تتحول سلطة غوغل، في جوهرها، بإجبار المستخدمين على الموافقة على جمع البيانات إلى تكتيك أكثر شيوعًا للشركات والحكومات مع استمرار فيروس كورونا المستجد، في تدافعها المستمر لاستخدام التكنولوجيا لوقف أكثر نجاعة (وأقوى ربحا) للوباء.. يعتمد الأمل في العودة إلى الحياة الطبيعية بعد عمليات الحجر الصحي على القدرة على تتبع الحالات المصابة بكورونا والحد من تفشي المرض من جديد.. في الأشهر المقبلة، سيُطلب من الناس في جميع أنحاء العالم الثقة بأن شركات التكنولوجيا والحكومات تضع مصالحنا في الاعتبار عند جمع بياناتنا وتتبع تحركاتنا.

لسوء الحظ- وبشكل يثير القلق- لم تكتسب شركة غوغل هذه الثقة.. فقد ابتليت في مجال الرعاية الصحية بخطوات خاطئة وانتقادات عامة.. ففي عام 2017، حكم مكتب مفوض المعلومات في المملكة المتحدة على المستشفى الملكي في لندن بتهمة انتهاك القانون الوطني لحماية البيانات بعد أن سلم أكثر من 1.6 مليون بيانات شخصية خاصة بالمرضى إلى شركة DeepMind التابعة لشركة غوغل، في الوقت الذي وعد الشريك المؤسس لـ DeepMind في عام 2016 بأن الشركة لن تربط أو تتقاسم أبدًا بيانات المرضى مع باقي منتوجات غوغل (في دعوة تبدو مشابهة جدًا لما تقدمه اليوم شركة Verily)، هذا الوعد خرج من النافذة عام 2018، عندما ابتلعت غوغل كليا تطبيق DeepMind والبيانات التي بحوزتها.. في نوفمبر 2019، استغنى بعض المستخدمين في شبه ذعر عن تطبيق الصحة واللياقة البدنية (Fitbits) التابع لشركة غوغل، لكن بعد فوات الأوان، حيث استحوذت غوغل على الشركة وخزائنها الضخمة من المعلومات الصحية.. بعدها بوقت قصير،

دق المبلغون ناقوس الخطر بشأن مشروع «نايتنجيل» أو العندليب (مشروع لتخزين البيانات ومعالجتها بواسطة غوغل Cloud وAscension، يضم عشرات الملايين من سجلات المرضى المتاحة لمعالجة البيانات الصحية، وتعد Ascension أحد أكبر أنظمة الرعاية الصحية غير الربحية في الولايات المتحدة الأمريكية بمعلومات رعاية صحية شاملة ومحددة لملايين المستخدمين الذين أصبحوا جزءا من نظامها..) إذ أتاحت الاتفاقية لغوغل الوصول إلى البيانات الصحية لملايين الأمريكيين والمنظمين المعنيين لدرجة أنه تم فتح تحقيق فيدرالي في الموضوع.. في هذا السياق، تبدو أداة اختبار فيروس كورونا من غوغل كلعبة تجارية ذكية جدًا.

هل الإكراه على التخلي عن بياناتك، في مقابل اختبار فيروس كورونا المستجد، أمر سيء حقًا؟ بالتأكيد يمكن أن يكون كذلك.. لأن خرق البيانات الصحية الشخصية عملية خطيرة، ويؤدي مجرد جمع البيانات الصحية والاحتفاظ بها إلى تعريض الأشخاص موضوع البيانات (أي أنت والجميع) للخطر.. كما أشارت خبيرة قانون الصحة شارلوت تشيدر في مقابلة معها: «يتم التمييز ضد الأشخاص كل يوم بناءً على الظروف الصحية، وقد رأينا مدى سرعة التعرف على الأشخاص الذين أصيبوا بفيروس كوفيد 19 في وسائل الإعلام.. هناك خطر حقيقي في أن يتم تحديد شخص ما على أنه مريض من درجة صفر أو 10 أو أيا كان، ومن المحتمل أن يصبحوا موضوع حديث الكل».

وقد تم تنفيذ هذا السيناريو في كوريا الجنوبية، حيث استخدمت السلطات الحكومية للصحة العامة بيانات الهاتف المحمول لتتبع تحركات الأشخاص المصابين بفيروس كورونا المستجد.. أرسلت السلطات نصوصًا جماعية تصف هذه الحركات لعامة الناس كوسيلة لتنبيههم إلى مخاطر العدوى المحتملة.. للأسف فإن البيانات المرسلة للمستخدمين لم تنجح في الحفاظ على سرية «المصدر المجهول»،

إذ تم التعرف على عدد من الأشخاص وعلى حركاتهم عبر الإنترنت بسرعة، مما أدى إلى إسقاطات محرجة في مجال الأعمال، إجراءات الجراحة التجميلية وحتى الاحتيال على التأمين.. وأفاد الناجون من فيروس كوفيد 19 في الولايات المتحدة أنهم يعانون من وصمة العار الاجتماعي والتشهير العام، وتلقي رسائل الكراهية عند عودتهم إلى ديارهم، بينما في أوكرانيا، هاجم المتظاهرون حافلات تقل الأشخاص الذين تم إجلاؤهم من الصين إلى مركز الحجر الصحي.

يمكن أن يتجاوز الإكراه على البيانات أكثر من مجرد التحكم في اختبار الفيروس

في مثال دراماتيكي على إكراه البيانات، تشترك الحكومة الصينية مع محفظة Alipay الشهير لنشر تطبيق الحجر الصحي الإلزامي لفيروس كورونا المستجد، والذي يستخدم استبيانًا لتعيين الحالة الصحية للأشخاص مرمزة بالألوان (اللون الأخضر يعني مسموح لك بالتنقل، بينما اللون الأحمر يشير إلى الحجر الإلزامي لمدة أسبوعين)، يحتاج المواطنون عبر معظم المدن الصينية الكبرى، إلى إظهار رمز أخضر عند نقاط التفتيش إذا كانوا يرغبون في المرور؛ كما يتم تبادل بيانات الموقع والمعلومات الأخرى مع الشرطة والسلطات الأخرى.. تم إنشاء العديد من التطبيقات المتنافسة المختلفة من طرف الحكومة المركزية، والبعض منها ابتكرته السلطات المحلية، وهو ما جعل العملية مربكة بشكل استثنائي حيث تُجرب كافة أنواع السلطات تقنيات متعددة.

تكتيك غوغل لربط الوصول إلى اختبار كوفيد 19 بالتخلي عن البيانات الشخصية ليس جديدًا أيضًا.. إنها ببساطة واحدة من الحالات القليلة التي حدث فيها هذا النوع من إكراه البيانات للأشخاص المميزين نسبيًا.. فاللاجئون والملونون والمشردون وغيرهم من السكان المهمشين معتادون للأسف على إجبارهم على التخلي

عن الخصوصية والمعلومات الشخصية مقابل الوصول إلى السلع والخدمات التي يحتاجون إليها للبقاء على قيد الحياة، فيما يشير إليه البعض بـ«فجوة خصوصية» آخذة في الاتساع- تمايز قد تساعد جائحة فيروس كوفيد 19 في تضييقه إذا تم تعميم الأساليب التي تم اختبارها على الفقراء والضعفاء على الجميع في المستقبل القريب.. مثلما يتم توظيف التكنولوجيا للتحكم في تحركات الأشخاص المهمشين اليوم، فقد تتم الاستفادة منها قريبًا للتحكم في تحركات الأشخاص الأكثر امتيازًا في المستقبل القريب جدًا، حيث يكون فيروس كورونا المستجد هو المبرر.

مع ذلك، فإن أداة فحص فيروسات كورونا من Verily ليست قسرية فحسب، إنها محض تجريب، حيث تم إطلاقها على عجل وبجهد كبير ولم يتم تجريبها بشكل كاف في تحديد المرضى المعرضين لخطورة مرتفعة بشكل فعال وإخضاعهم للاختبار.. في الوقت الذي تتدافع فيه شركات التكنولوجيا وحكومات العالم لتشكيل شراكات لصياغة استجابات مبتكرة للوباء، من المحتمل أن نصبح جميعًا موضوعات غير معارضين (أو غير مشككين)، وفي أغلب الحالات، لن نتمكن من إلغاء الاشتراك بشكل مفيد.

تُستخدم الأزمات غالبًا كمبرر لنشر تقنيات وأفكار جديدة غير مختبرة في عملية التجارب الإنسانية، حيث يتم التخلص من القواعد والضوابط المعتادة لصالح التسرع المفترض لإنقاذ الحياة- ويتم تجاهل الأخطار المحتملة والعواقب غير المتوقعة لهذه التقنيات الجديدة إلى حد كبير.

يحدث عادة هذا النوع من المساعدة من خلال الابتكار للأشخاص الفقراء في البلدان الأقل ثراءً، كما رأينا خلال تفشي فيروس إيبولا 2014 ، عندما استغلت منظمات المساعدة والبحوث والتكنولوجيا الأزمة لتبرير استخدام بيانات الهاتف المحمول- بشكل غير فعال- في غرب إفريقيا من أجل محاولة تتبع انتشار المرض.. انتهكت خصوصية الملايين من الأشخاص، وكما تشير الدراسات الحديثة، فإن هذا

النوع من رصد سجلات تفاصيل المكالمات لتتبع انتشار الأوبئة قد لا يعمل بشكل ناجع، ولكن لم تسجل سوى القليل من ردود فعل الأشخاص الذين تم رصدهم، وبالتالي فالموارد المالية التي كان يجب أن تذهب مباشرةً إلى مكافحة المرض تم وضعها، بدلاً من ذلك، في اتجاه الحلول التقنية.

قد تؤدي جائحة كوفيد-19 إذا حصلت شركات التكنولوجيا والحكومات التي يحركها فضول الضبط والمراقبة- إلى توسيع نطاق هذا النوع من التجارب التي تعتمد على التكنولوجيا ليشمل الجميع تقريبًا.. يقول خبير الخصوصية شون مارتن ماكدونالد: «الكثير من الناس ليس لديهم تحديد دقيق لمعنى وضعهم تحت الاختبار من قبل الحكومة خلال الوباء»، «ربما علينا الآن تطويره».

هناك بعض الطرق التي تمكننا من صد هذا المنحى، ففي الوقت الذي تطرح فيه الحكومات وشركات التكنولوجيا طرقًا جديدة ومُبتكرة لتتبع فيروس كورونا المستجد، يجب على الجمهور مقاربتها بعين ناقدة، والدفاع عن قيمة الخصوصية وحماية حقوق الإنسان أثناء الأزمات. يرى ليندسي باريت، خبير قانون الخصوصية في جامعة جورجتاون، أن: «وصف الخصوصية على أنها شيء تافه يتجنب التهديدات الحقيقية للغاية التي تمثلها على أمان الناس»، «إذا كنا نحاول معالجة أحد مخاوف السلامة من خلال جعل الناس عرضة للخطر بطريقة أخرى، إذا كنا نقول إن الخصوصية غبية وأن أي شخص يحاول انتقاد هذه الإجراءات يرتدي قبعة صفيحية، فهذا أمر مخادع وغير منتج».

أدوات الأمان لديها طريقة لتضمين نفسها بشكل دائم

من البديهي أن تغري الطبيعة الساحقة للأزمات بترسيخ الاستثناءات، مثلما يضطر الجمهور إلى قبول فقدان حريته في الحركة- مؤقتًا على الأقل- لكن

الأدوات الأمنية لديها طريقة لتأبيد نفسها بشكل دائم.. لهذا من المهم أن تأتي أدوات المراقبة وجمع البيانات الجديدة هذه ببنود واضحة تحدد بدقة شروط العمل بها (على النحو الذي اقترحته لينيت تايلور من جامعة تيلبورغ)، وآليات قانونية أخرى ستجبرها على رفعها بالمرة.. في غياب هذه الحماية، قد لا تختفي طرق المراقبة الجديدة التي يتم إطلاقها أثناء الوباء أبدًا: ستصبح المراقبة التقنية مفتاحا أحادي الاتجاه، قرص تحكم يمكن عرضه.

لا ينبغي أن تصبح غوغل شريكًا هادئًا لسلطات الصحة العامة في جميع أنحاء الولايات المتحدة أثناء استمرار الوباء- وإذا انتهى الأمر بالحكومة والشركات بتتبع تحركات الأشخاص باستخدام بيانات الهاتف، فيجب أن يكون لهذه الجهود تاريخ انتهاء محدد بجلاء وإرشادات واضحة لحذف كل تلك المعلومات عندما لا تصبح هناك حاجة ماسة إليها.

حتمًا سيكون العالم فضاءً مختلفًا ومحزنًا للغاية عندما ينتهي الوباء.. قد يكون أيضًا أقل حرية، مكان تصبح فيه شركات التكنولوجيا والحكومات قادرة على استخدام البيانات لتعزيز سيطرتها على الشخص العادي، بطرق يصعب حتى تخيلها اليوم.. إذا أردنا منع المستفيدين من الجائحة من الوصول إلى تفاصيل أكثر حميمية في حياتنا، فعلينا أن نكون يقظين وأن نتصرف الآن.

* يقود فاين كرينوود **Faine Greenwood** البحث في استخدام المركبات الجوية بدون طيار في أعمال المساعدة الإنسانية من خلال برنامج الإشارات لمبادرة جامعة هارفارد الإنسانية.

«عن مجلة فورين بوليسي»

https://foreignpolicy.com/2020/03/30/google_personal_health_data_coronavirus_test_pri-/vacy_surveillance_silicon_valley

الخصوصية وجائحة كوفيد 19: حان الوقت لشرعنة الحقوق الرقمية

تحتاج الحكومات الديمقراطية إلى أدوات رقمية وبيانات شخصية لمكافحة وباء كورونا المستجد، ولكن الاستغلال المفرط قد يشكل خطرا على حقوق الأفراد.. فكيف يمكن تحقيق التوازن السليم بين الحقوق؟

* ديبيان غوش، أدريان أبيكاسيس، جاك لوفيريدج

يُقوض الانتشار السريع لفيروس كورونا المستجد في الولايات المتحدة المعايير الأساسية للديمقراطية.. قبل شهر بالكاد، بدا فرض الحجر الصحي بالصين قرارا صارما من قبل دولة استبدادية، الآن حتى الولايات المتحدة الأمريكية الأكثر ميلاً إلى التحرر، تنفذ تدابير مماثلة بدافع الضرورة القصوى.. في حين يواصل تفشي الفيروس ذروته في أجزاء عديدة من البلاد، حتى لتبدو الأمة قاطبة مستعدة لتحمل ما يبدو جائحة دائمة.. إذ حذر الجراح العام الأمريكي جيروم آدمز، من أن الزيادة في الوفيات على الساحل الشرقي ستكون أقرب إلى كارثة بيرل هاربور أو 11 سبتمبر.

مثلما وقع بعد هاتين الكارثتين، بدا التقييد السريع للحريات المدنية ضروريًا في الوقت الذي تقاتل فيه الحكومات من أجل السيطرة على الوضع.. تسببت جائحة فيروس كوفيد 19 في اصطدام مقتضيات ضرورات حفظ الصحة العامة مع المبادئ الديمقراطية الأساسية.. كحرية التنقل. ومن المرجح أن تفرض المزيد

من القيود على الحريات المدنية- خاصة في المجال الرقمي- لكن التاريخ يظهر أنه لا يوجد سبب وجيه للاعتقاد بأنه مع نهاية التهديد الفوري للجائحة سيتم تخفيف تلك القيود.. لذلك، يجب على المواطنين والجماعات والقادة أن يشرعوا- من الآن- في العمل من أجل وضع مجموعة من الحقوق الرقمية، قبل أن تزداد الأمور سوءا ويفقد الأفراد السيطرة بشكل دائم على بياناتهم على الإنترنت.. إذ من المتوقع أن تستمر الجائحة لفترة أطول مما يمكن للجمهور التعايش مع الحجر الصحي، فقد نتج عن الإغلاق الشامل للمرافق 22 مليون طلب للتعويض عن فقدان الشغل في الولايات المتحدة واستلزم حزمة تحفيز فيدرالية بقيمة 2.2 تريليون دولار، ربما الأولى على رأس مطالب عديدة. ومع ذلك، من المستبعد أن يتم إيجاد اللقاحات أو العلاجات اللازمة قبل منتصف عام 2021، لذا تحتاج الحكومات إلى البدء في التكيف مع هذا الوضع.

فالنموذج الوحيد الذي يبدو فعالا -حتى اليوم- في احتواء انتشار الفيروس في الاقتصاد المعاد فتحه جزئيا هو مزيج من الاختبارات المكثفة لكشف المصابين والاستخدام الواسع لمعدات الحماية الشخصية ونشر تكنولوجيا المراقبة.. لقد تمكنت حكومات هونغ كونغ وسنغافورة وكوريا الجنوبية وتايوان من تفادي عمليات الحجر الصحي لفترات طويلة- حتى أن بعضها حافظ على سير الأعمال والمطاعم وبقيت المدارس مفتوحة- من خلال تطبيق هذا النهج المشترك.

وتنظر الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية اليوم في نهج مماثل على نطاق واسع، بالشراكة مع شركات التكنولوجيا الكبرى.. وبدأت شركة غوغل في تقاسم بعض مجموعاتها الواسعة من بيانات تحديد الموقع مع باحثي الصحة العامة وعلماء الأوبئة للمساعدة في نمذجة حركة مستخدميها. وقام فريق في معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا بتطوير تطبيق تتبع القرب لتعقب مخالطي حاملي فيروس كوفيد 19، حيث أعلنت غوغل وآبل عن إدخال واجهات برمجة تطبيقات

الأندرويد و«الإي أو إس» iOS لتسهيل تتبع الاتصال الطوعي عبر عمليات إرسال «البلوتوث» المنخفض الطاقة.. من جانبها، تستكشف واشنطن اليوم الاستخدام الواسع النطاق لهذه التطبيقات الرقمية القائمة على البيانات.

الصحة العامة، حقوق الخصوصية والازدهار الاقتصادي: ثلاثة مستلزمات حيوية لكل المجتمعات الديمقراطية، لكنها تتطلب توازنات.. عند التفكير في هذه الأمور، فإن مراعاة بعض المبادئ يمكن أن يساعد البلدان على تحقيق التوازن السليم:

أولاً، يجب أن تكون أي إجراءات ترصد يتم اعتمادها قابلة للمراجعة، ومتناسبة وشفافة تمامًا.. للتأكد من أن صناع القرار لا يتجاوزون حالة الطوارئ، يجب تحديد عملية محو المعطيات الشخصية في لحظة تنفيذها.. وقد أظهر الماضي القريب أنه قد يكون من الصعب التراجع عن هذه الترتيبات، على سبيل المثال، تمت إعادة تفويض العديد من أحكام المراقبة الشاملة لقانون باتريوت المؤقت بشكل روتيني من قبل الكونغرس منذ عام 2005 وتم تمديدها مؤخرًا في الشهر الماضي فقط.

لتتبع المصابين المحتملين بفيروس كورونا المستجد، تجمع كوريا الجنوبية ليس فقط بيانات التموقع من الهواتف المحمولة ونظام تحديد المواقع العالمي، ولكن أيضًا بيانات النقل العام وبيانات بطاقة الائتمان وسجلات الهجرة وما إلى ذلك... إذا أرادت الولايات المتحدة نسخ هذا النموذج، فيجب على الحكومة أن تطلب من مطوري التطبيق توضيح كيف يمكن لكل جزء من المعلومات التي تم جمعها أن يساعد في مواجهة انتشار فيروس كوفيد 19.. على سبيل المثال، لا يوجد سبب مشروع لجمع أو معالجة بيانات الموقع أو بيانات الاتصال عن قرب لعدة أشهر من مكافحة فيروس بفترة حضانة لمدة أسبوعين فقط.

سيميل حاملو هذه السجلات أيضًا إلى استخدام البيانات التي لا تقدر بثمن لأهداف أخرى غير محاربة الفيروس- أغراض تتجاوز المصلحة العامة إلى البحث عن الاستغلال الربحي. يجب ألا نخطئ: ستكون هذه البيانات ذات قيمة هائلة، بما في ذلك خدمة الصالح العام، لتحسين النقل العام والبنية التحتية للرعاية الصحية وما إلى ذلك.. لكن، وحفاظا على ثقة الجمهور، يجب على الحكومة تقييد إعادة استخدام هذه البيانات لأغراض غير ذات صلة بمحاربة فيروس كورونا المستجد، حتى إن كان استخدامها من أجل المصلحة العامة.

النجاعة وحدها لا يمكن أن تبرر أي سياسة.. في الصين، يتطلب تطبيق الهاتف الذكي الذي يجمع بيانات صحة الفرد ويعين له رمز لون (أخضر أو أصفر أو أحمر) يعكس الحالة الصحية لذلك الشخص لدخول مركز تسوق أو لركوب قطار.. يجب على الأمريكيين أن يكونوا حذرين من هذا المستوى من السيطرة الاجتماعية، فهم عرضة للتطبيق بشكل غير متساو وبطريقة تمييزية ولأهداف لا تتعلق على الإطلاق باحتواء الفيروس.

وأخيرًا يجب على القادة السياسيين معالجة مشكلة هيكلية: تعمل النصوص والمعايير والمؤسسات القديمة التي تدعم الديمقراطية بشكل أخرق في العالم الرقمي.. هذه ليست مشكلة جديدة، وقد توقع خبراء السياسة الرقمية منذ فترة طويلة أزمة تعطل بشكل أساسي التوازن بين التقنيات الرقمية والحريات الفردية.. افتقر القادة السياسيون الغربيون ببساطة إلى الإرادة السياسية للتخطيط بشكل استباقي.. إن عدم استعدادهم العام للوباء نفسه يجب أن يحذر بما يكفي من أن الفشل في توقع تحديات السياسة يمكن أن يكون كارثياً على المجتمع.

في البلدان الديمقراطية، يوجد مثل هذا الإطار القانوني الوقائي بالفعل في عالم بعض الحريات المدنية: يخشى عدد قليل من مواطني البلدان الديمقراطية

من أن تظل حريات التنقل أو التجمع مقيدة بشكل دائم بمجرد أن يتلاشى وباء كوفيد 19.. لا يوجد مثل هذا المستوى من اليقين حين يتعلق الأمر بالحقوق الرقمية، حيث تبدو الأمور أكثر غموضاً وتثار مخاوف من كون قبول أحكام الطوارئ قد يؤدي إلى أن تصبح المراقبة الجماعية أمرًا طبيعيًا جديدًا.. العديد من هذه الحقوق ضمنية ومفترضة، ولكن لم يتم تكريسها حتى الآن بصفة قابلة للتنفيذ.

في السنوات الأخيرة، مع ظهور المزيد من المعلومات حول مدى جمع البيانات العامة والتلاعب بها من قبل عمالقة التكنولوجيا، ضغط النشطاء لضمان أن يتماشى استخدام البيانات مع القيم الديمقراطية.. الاستجابة الرقمية لكوفيد 19 تضخم هذه الضرورة.

في أكتوبر 2019، بمناسبة انعقاد المنتدى العالمي حول الذكاء الاصطناعي للإنسانية، دعا الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون الخبراء والحكومات إلى تحديد جماعي لقانون جديد للحقوق يضمن الحماية الأساسية في العالم الرقمي، مؤكدا أن «ما هو على المحك أمر بالغ الأهمية وأساسي لديمقراطياتنا».. يجب على الولايات المتحدة أن تصغي لهذه الدعوة وأن تساعد في تنظيم تحالف دولي من صناع السياسة والخبراء ومجموعات الدفاع عن الجمهور والشركات المعنية.

يمكن أن يحدد مشروع هذا القانون بوضوح كيف يجب ضمان الحقوق الرقمية والخصوصية لمنع أي انتهاك يستمر حتى بعد انتهاء الأزمة، وكأي حقوق أساسية، متوازنة مع الحقوق والخدمات الاجتماعية الأخرى- مثل السلامة العامة والصحة- تكشف الأسئلة التي نواجهها اليوم لماذا النهج الحالي المتمثل في وضع عبء الخصوصية على المستخدمين فقط أمر ناقص.

تعتمد الحجج الخاصة بنشر أدوات المراقبة على الحاجة إلى الموازنة بين احترام الخصوصية والالتزامات المتبادلة التي نتحملها جميعًا تجاه بعضنا البعض،

في هذه الحالة، للحد من انتشار الفيروس.. لتحقيق توازن ذي مغزى، فإن السماح لكل فرد بالتمكين(حق السماح بالاشتراك) أو التعطيل (سحب الاشتراك) غير كافٍ.. تولد البيانات الشخصية عوامل خارجية، بحيث تكون مفيدة عندما يتعلق الأمر باحتواء الوباء، لكنها تصبح ضارة عندما تؤدي إلى كميات هائلة من البيانات الشخصية التي تضفي القوة على الجهات الخاصة أو العامة التي تمارسها لمراقبة أنشطتنا اليومية وتنتهك خصوصيتنا.. لا يجب الارتجال في تحديد مكان تحقيق هذا التوازن في منتصف الأزمة؛ إنه يتطلب نقاشا ديمقراطيا شاملا.

ففي الوقت الذي يركز معظم صناع السياسات والحكومات حاليا على الاحتياجات الفورية لمحاربة الوباء، لا ينبغي لأحد أن يغض الطرف عن المقايضات التي تنطوي عليها.. ولمنع اتخاذ خطوات يصعب مراجعتها، يجب أن تعمل المجتمعات الديمقراطية الآن على تقنين الحقوق الرقمية وإصدار القوانين لحمايتها.

* الدكتور ديبيان غوش المدير المشارك لمشروع المنصات الرقمية والديمقراطية وخريج شورنشتاين بمدرسة هارفارد كينيدي. كان مستشارًا للتكنولوجيا والسياسة الاقتصادية للرئيس السابق باراك أوباما، وعمل حتى وقت قريب على قضايا الخصوصية والسياسة العامة الأمريكية على الفايسبوك.

* أدريان أبيكاسيس خريج مركز بيلفر للعلوم والشؤون الدولية من مدرسة هارفارد كينيدي. كان دبلوماسيًا وكبير المستشارين السياسيين لرئيس فرنسا من **2012** إلى **2017**.

* جاك لوفريدج مؤرخ للعلوم والتكنولوجيا وعضو في إدارة مركز ويذرهيد للشؤون الدولية في جامعة هارفارد.. كان باحثًا في برنامج فولبرايت بالهند ويكتب عن الروابط بين سياسة العلوم والتنمية الاقتصادية.

عن مجلة «فورين بوليسي»

https://foreignpolicy.com/2020/04/20/coronavirus-pandemic-privacy-digital-rights-democracy/

هكذا ستؤدي جائحة كورونا إلى توسيع سلطة الحكومات بشكل دائم

عشرة من كبار المفكرين العالميين يستشرفون وضع الحكومات بعد وباء كورونا

تحولنا جميعا إلى «دولتيين»، نطالب باستعادة دور الدولة.. منذ تفشي جائحة فيروس كورونا وانهيار الاقتصاد العالمي، تطلعنا إلى الحكومات لتعبئة الموارد الطبية وتنفيذ تدابير احتواء الفيروس وإنفاق مبالغ لم يكن من الممكن تصورها في السابق لدعم العمال والشركات.. من بين هذه السياسات الطارئة، يمكن أن تنشأ مؤسسات وطرق جديدة لحل المشاكل التي ستفيدنا لفترة طويلة بعد الوباء.

هناك جانب مظلم أيضًا.. لقد تولت الحكومات سلطات جديدة وصلاحيات كبرى للتتبع والمراقبة والسيطرة.. أساء بعضها بالفعل استخدام هذه الصلاحيات، ومن المتوقع أنها قد لن تعيدها أبدًا.

لمساعدتنا على فهم كيف سيوسع الوباء بشكل دائم سلطات الحكومة- سلبا وإيجابا- طلبت مجلة «فورين بوليسي» من عشرة مفكرين بارزين من جميع أنحاء العالم استشراف الوضع.

عالم ما بعد الوباء، سيراقبه الأخ الأكبر

* ستيفن إم والت روبرت أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفارد

تولت الحكومات في جميع أنحاء العالم سيطرة غير مسبوقة على تفاصيل الحياة اليومية لمواطنيها في مواجهة فيروس كورونا المستجد، أغلقت الديمقراطيات والديكتاتوريات على حد سواء الحدود وفرضت الحجر الصحي وأغلقت جزءًا كبيرًا من الاقتصاد ونفذت مجموعة متنوعة من الاختبارات، أنظمة التتبع والمراقبة لاحتواء العدوى.. حققت الحكومات التي تصرفت بشكل أسرع واعتمدت إجراءات أكثر صرامة نجاحًا أكبر.. أما القادة الذين أنكروا الفيروس، أو تراخوا وتأخروا.. فهم مسؤولون عن آلاف الوفيات التي كان من الممكن تجنبها.

مع انخفاض معدلات الإصابة وتوفر العلاجات الفعالة، ستخفف العديد من البلدان تدريجياً معظم القيود المفروضة الآن.. وقد يتنازل بعض القادة الذين تولوا سلطات الطوارئ أثناء الأزمة عن هذه الصلاحيات.. لكن علينا أن نستعد للوضع الطبيعي الجديد: الانتهازية السياسية والخوف من جائحة جديدة ستؤدي بالعديد من الحكومات إلى الاحتفاظ ببعض سلطاتها المكتسبة حديثًا بين يديها.. توقع أن يتم قياس درجة حرارتك أو مسح حلقك عند السفر، والتعود على مراقبة هاتفك، والتقاط صورتك، ومتابعة موقعك في العديد من البلدان.. فاستخدام هذه المعلومات لا يقتصر دائمًا على مسائل الصحة العامة. في عالم ما بعد فيروس كورونا، سيراقبنا الأخ الأكبر(*).

* (الأخ الأكبر big brother، نسبة إلى رواية جورج أورويل «1984» وهو البطل الحاكم الغامض لأوشنيا الدكتاتورية، وأصبحت تستعمل رمزيا للدلالة على عسف السلطة الحكومية والحكم المطلق. المترجم)

سيكون الوباء نعمة لحكومة جيدة

* ألكسندرا ورايج رئيس منظمة «أثر» لتعزيز الشفافية التجارية في العالم

أولاً، الخبر السيئ: بينما يضخ العالم تريليونات الدولارات في برامج التحفيز والقطاع الطبي، ستكون هناك فرص لا حصر لها للفساد والكسب غير المشروع.

ثانيا، الخبر السار هو أن الأخبار الأكيدة المتداولة حول الموارد المهدورة والمعاملات التجاربة غير الشفافة ستحول الوباء في النهاية إلى نعمة للحكم الرشيد وزيادة المساءلة.. أدركنا منذ الربيع العربي والحركات الاجتماعية الأخرى، أن المجتمعات نفذ صبرها على الفساد عندما يعاني السكان.. سيكون هذا صحيحًا بشكل خاص بالنسبة للحكومات الاستبدادية، والتي ستواجه بالتأكيد رد فعل عنيف لإخفاء نطاق المشكلة والسماح للمسؤولين بالاستفادة من الوباء.

ومن خلال المقارنة، فإن الحكومات التي واجهت الوباء بفعالية، واعتمدت على البيانات، الحكومات الحيوية، التعاونية والمبتكرة.. ستثبت تفوقها على الأنظمة الاستبدادية في تخليص مجتمعاتها من فيروس كورونا وتكاليفه الاقتصادية، وهو ما سيعزز مكانتها وتمتعها بقدر أكبر من ثقة الجمهور في المستقبل.

شكل الحكومة المستقبلية سيتم صنعه في آسيا

* جيمس كرابتري أستاذ مساعد في كلية «لي كوان يو» للسياسة العامة في جامعة سنغافورة

سيعلن وباء كوفيد 19 انطلاق حقبة جديدة من حكومة أضخم وأكثر تدخلاً في كل اقتصاد متقدم تقريبا- ولكن هذا التغيير سيظهر بشكل كبير في الدول الآسيوية التي ظلت تتباهى بحكوماتها الفعالة.

تحركت معظم الدول الغنية بسرعة لتشغيل صنابير الإنفاق، وحماية مواطنيها وشركاتها من خلال خطط دعم الأجور والمدفوعات النقدية.. يصدق هذا على الولايات المتحدة وألمانيا، ولكن أيضًا على أماكن مثل سنغافورة وماليزيا التي تجنب قادتها تقليديًا عن الزيادات الجبائية باهظة التكلفة.

من الواضح أن إدارة الوباء في المستقبل ستتطلب حكومات أكبر أيضًا، حيث تسارع الدول إلى إنشاء أدوات جديدة موسعة لمكافحة الأمراض، وإدارة أمكنة العمل، والمراقبة الاجتماعية على أمل الحد من تفشي الفيروس في المستقبل قبل بروز اللقاح.. مرة أخرى، هذا مجال من المرجح أن تتولى فيه الحكومات الآسيوية مثل كوريا الجنوبية واليابان زمام المبادرة، بالنظر إلى كونها مزيجا من القدرات العالية للدولة والمعرفة التكنولوجية والنهج المرن نسبيًا لتنظيم الخصوصية.

باختصار، سيعود عصر الحكومة الضخمةbig gouvernement❖(يستعمل المفهوم هنا بمعنى الحكومات التي تتدخل في الاقتصاد وتوجه أنشطة المجلات العامة والخدمات الأساسية)، لكنه سيتجلى بطرق مختلفة تمامًا عن الحقبة السابقة للدول الكبيرة خلال الستينيات والسبعينيات، ولن يتم تشكيل الكثير من

نموذجها الجديد في الغرب، بل في الشرق.

عودة السياسة الصناعية من جديد

* شانون ك.أونيل أستاذة دراسات أمريكا اللاتينية في مجلس العلاقات الخارجية ومؤلفة كتاب «أممتان غير قابلة للتجزئة: المكسيك والولايات المتحدة والطريق إلى الأمام»

من المتوقع أن تكون هذه مجرد بداية لمجموعة من المخططات العامة لتشكيل إنتاج السلع والخدمات التي تعتبر ضرورية، حيث تكافح البلدان والشركات آثار الفيروس التاجي على العمل والإنتاج، وتعود السياسة الصناعية من جديد، بعد عقود من زخم السوق الحرة، ستتبنى الحكومات في البلدان المتقدمة والأسواق الناشئة على حد سواء أدوارًا مؤثرة وطويلة الأمد في القطاعات الحيوية لاقتصاداتها.

يتضمن ذلك حتى الآن، زيادة إدارة التجارة عن طريق التعريفات والتراخيص وحصص التوريد ومعايير جودة المنتجات وحتى الحظر التام للتصدير، خاصة المواد الغذائية والإمدادات الطبية.. ومنح مليارات الدولارات نقدًا وامتيازات عامة للشركات من أجل العودة للتصنيع الوطني بدل من الاستثمار الصناعي في الخارج، أبرز مثال على ذلك هو مبلغ 2.3 مليار دولار الذي تدفعه اليابان الآن لإغراء شركاتها لمغادرة الصين.

مع تعثر منظمة التجارة العالمية، يفترض أن يكون هذا مجرد بداية لمجموعة من الإعانات العامة والإعفاءات الضريبية، والمشتريات الحكومية والتخزين، ومتطلبات الشراء المحلية وغيرها من المخططات التي ستضعها العديد من الدول

لهيكلة الإنتاج والوصول إلى مجموعة أوسع بكثير من السلع والخدمات التي تعتبر ضرورية لأسباب تتعلق بالأمن القومي.. الذي يتم تعريفه الآن على نطاق أوسع ليشمل مخاطر الاضطراب أو الاعتماد المفرط على الصين أو توفير الوظائف..

من المؤكد أن الجهود المبذولة للحفاظ على التجارة الحرة وربما توسيعها لن تنتهي.. لكن العديد من هذه المفاوضات ستفترض، وتتغاضى، بل وفي بعض الأحيان ستقنن المزيد من التدخل الحكومي المباشر في الأسواق، وليس خفضه.

عصر جديد من الحكومات المتغطرسة

* روبرت دي كابلان، محلل سياسي كبير خاصة في مجال الجغرافية السياسية في معهد ستراتفور ومؤلف 19 كتابًا عن الشؤون الخارجية بما في ذلك «الأمريكي الطيب: ملحمة حياة بوب جيرسون»

كباقي الأزمات السابقة التي غيرت الحياة مثل الحرب العالمية الثانية، من المرجح أن تؤجج جائحة فيروس كوفيد 19 الحاجة إلى تبني الحكومة الضخمة لتوفير الحماية.

بعد ثلاثة عقود من تكوين الثروة على نطاق غير مسبوق تاريخيًا، قد نكون الآن على أعتاب فترة غير مسبوقة من إعادة توزيع الثروة في شكل ضرائب مرتفعة لتمويل التوسع في الرعاية الصحية والخدمات الأخرى.. قد تكون الأشكال التقنية الجديدة لمراقبة الأفراد التي نجحت بفضلها بعض الدول في محاربة الوباء نذيرًا للمستقبل.. ستصبح الخصوصية على نحو متزايد مشكلة في هذا العصر الجديد من الحكومة المستبدة. وكذلك الدين الحكومي، الذي تفاقم بشكل يفوق كل النسب.. ومع إشعال الوباء لحدة التنافس بين الولايات المتحدة والصين، تلوح في الأفق

دعوات لزيادة الإنفاق الدفاعي للولايات المتحدة.. كيف سندفع مقابل كل ذلك؟ سيشكل ذلك مركز النقاش الحقيقي.

قد تكون حكومة أضخم ذات دور أقوى للخبراء في الصحة العامة ومجالات أخرى قيد التشكل، إلى جانب رد فعل شعبي مكثف ضدها.. مع الاستجابة غير المنسقة إلى حد ما لمواجهة الوباء في الولايات المتحدة والعديد من البلدان الأخرى، سيكون هناك اتجاه نحو تعزيز دور الحكومات الوطنية في عالم ما بعد فيروس كورونا.. نتيجة لذلك قد تصبح حياتنا في المدى القريب أكثر تنظيماً من أي وقت مضى.

بعض الحكومات تستخدم أزمة الجائحة لإسكات المنتقدين

*** كينيث روث المدير التنفيذي لـ «هيومن رايتس ووتش»**

يسمح القانون الدولي لحقوق الإنسان لجميع الحكومات، في أزمنة الأزمات، بالحد مؤقتًا من بعض الحقوق- عن طريق قيود السفر وقواعد التباعد الاجتماعي على سبيل المثال- طالما أن القيود ضرورية للغاية ومتناسبة وغير تمييزية.. ومع ذلك، تحاول بعض الحكومات استخدام جائحة فيروس كوفيد 19 لإسكات المنتقدين وتوسيع المراقبة وترسيخ حكمها. يعتمد نجاحها في ذلك على ما إذا كان الجمهور يدرك أن هذا لن يؤدي إلا إلى احتمال تفاقم واشتداد كوارث الصحة العامة في المستقبل.. لا يجب أن تؤدي الأزمة إلى توسع دائم في سلطات الحكومة طالما ظل الجمهور يقظًا.

تقيد الرقابة التدفق الحر للمعلومات وهو أمر ضروري للغاية في التعرف على التهديدات الصحية والاستجابة لها بشكل فعال.. المراقبة التي تفشل في حماية الخصوصية تثبط التعاون الطوعي، وهو شرط أساسي لأي مبادرة ناجحة في مجال الصحة العامة.. تضمن الضوابط والتوازنات الممارسة على السلطة التنفيذية من طرف هيئة تشريعية وقضائية وإعلام ومجتمع مدني مستقل، أن تخدم الحكومات الرفاهية العامة بدلاً من مصالحها السياسية الخاصة.

باختصار، يوضح الوباء أنه يجب دعم حقوق الإنسان ليس فقط من حيث المبدأ، ولكن لأسباب براغماتية قوية أيضًا.. إذا قدر الجمهور هذه الأسباب، يمكن ممارسة ضغوط كافية على الحكومات لمنعها من الاستفادة من الأزمة، إذا لم يكن الأمر كذلك، فقد نجد أنفسنا في عالم به مخاطر أكبر للإصابة بالأمراض واحترام أقل لحقوق الإنسان.

ستخرج الحكومة المحلية أقوى بعد الوباء

* روبرت موغاه مؤسس معهد Igarapé ومؤلف كتاب»مائة خريطة للبقاء على قيد الحياة خلال المائة عام القادمة»(مع إيان غولدين)

تكشف جائحة فيروس كورونا المستجد عن معدن جودة الحكومات في جميع أنحاء العالم. لقد فشل العديد من القادة الوطنيين في الاختبار- على عكس قادة المناطق والمدن، الذين واجهوا الوباء وجهاً لوجه في مجتمعاتهم، وأظهروا كفاءة أكبر واكتسبوا ثقة ناخبيهم- وفي سياق ذلك، سيكرس فيروس كورونا توزيع السلطات بين مختلف مستويات الحكومة، ويعزز قوة الأقاليم والمدن.

ينصب التركيز الحالي على العمال والولاة (رؤساء المحافظات والأقاليم) ورؤساء البلديات لإنقاذ الأرواح وتقديم الخدمات الأساسية والحفاظ على القانون والنظام، ودعم الانتعاش الاقتصادي.. لكن بالفعل، هناك قادة محليون يتطلعون إلى ما وراء الوباء ويعيدون بشكل نشط تصور الحياة في مجتمعاتهم. ستعطي الموارد المالية المحدودة الأفضلية للسياسات الفعالة من حيث التكلفة والتي تولد فوائد متعددة، بما في ذلك طرق أفضل لتوفير الرعاية الصحية للفئات الأكثر هشاشةً وتعزيز الاقتصادات صديقة البيئة.. ستكون الخدمات الحكومية المستقبلية أكثر رقمنة وسلاسة وأوسع توزيعًا.

على مر التاريخ، كان لتفشي الأمراض المعدية تأثير عميق على الحكم المحلي. فقد أدى الطاعون الدبلي في القرن الرابع عشر إلى إعادة التفكير في المساحات الحضرية المزرية. وأدى تفشي الكوليرا في القرن التاسع عشر إلى إطلاق مخططات إعادة تطوير حضري ضخمة وتراكم كبير لأنظمة الصرف الصحي.. وبالمثل، فإن جائحة كورونا ستولد تحولات في الحكامة.. من تقنيات المراقبة المكتسحة لتتبع العدوى وفرض الحجر الصحي إلى الإنفاق السخي على الرعاية الصحية للسيطرة على هذا المرض والأمراض المستقبلية.

سوف تتسخ أيدي التكنوقراط

* آدم بوسن رئيس معهد بيترسون للاقتصاد الدولي

ركزت سياسات الاقتصاد الشمولي السابقة على المتغيرات الرئيسية: النمو، التضخم، البطالة والديون.. سمح ذلك لمحافظي البنوك المركزية ومن على

شاكلتهم بأن يوهموا أنفسهم وجماهيرهم أنهم يعتنون فقط بالرفاهية العامة، ولا يتخذون خيارات توزيع المنافع.. ومع ذلك، فقد أجبر الوباء وتداعياته التكنوقراط الاقتصاديين على تلطيخ أياديهم باتخاذ قرارات «تخصيصية» - أي الشركات تحصل على قروض مؤقتة وترتيبات العمل التي يتم دعمها، وأي الأصول يتم شراؤها؟- وهذا سيجعل سياسات الأزمات أكثر فاعلية، وأكثر خضوعا للمساءلة طالما أن القروض والمشتريات شفافة.. كما أنه يزيل القفازات التي كانت تحافظ في السابق على نظافة صناع القرار السياسي إلى حد ما، مع قبضة أكثر مرونة على الأحداث.. ستخرج البنوك المركزية ووزارات المالية والهيئات التنظيمية المالية من هذه الأزمة بأشكال جديدة من التدخل المباشر، وبعض الأنواع القديمة التي لم نشهدها منذ عقود والتي تم التخلي عنها سابقًا باعتبار دورها في تشويه الأسواقً.. لكن الاقتصاد العالمي الذي نعيشه اليوم، حيث تتعطل الأسواق بشكل متكرر بسبب الأزمات، يتطلب تدخلا قويا، وليس سياسة عدم التدخل أو «دعه يعمل».

سوف تتلاشى الخطوط الفاصلة بين السياسة المالية والضريبية والسياسة النقدية لتحقيق نتائج جيدة- وكان من المخادع دائمًا التظاهر بوجود انقسامات صارمة بين مختلف هذه السياسات.. سيتم استبدال المعايير التي منعت سابقًا التعاون بين الوكالات الحكومية استجابة للواقع الاقتصادي. من الجيد الاعتراف بالاستقلالية، لكنها لا تشعر بالاطمئنان عندما لا تتمكن من تحقيق النتيجة المرجوة في عزلة رائعة.

بعد أن نتغلب على الوباء، يجب أن نحارب شره المال

* كومي نايدو الأمين العام السابق لمنظمة العفو الدولية

يبدأ تشكيل عالم ما بعد الجائحة بالاعتراف بأننا جميعًا مصابون بشره حب المال: إننا نستهلك الكثير ونقرن الاستهلاك المفرط بالنجاح والسعادة في الحياة.. لقد مني تقييم الاقتصادات على أساس الناتج المحلي الإجمالي فقط، بفشل ذريع يجب معالجته إذا أردنا أن تكون لدينا فرصة لخلق عالم أكثر عدالة.

لقد أظهرت جائحة كوفيد 19 أننا بحاجة إلى إعادة التفكير الجذري في إنتاج وتوزيع الغذاء والسلع الأساسية الأخرى لنا جميعًا في المجتمع للعيش بصحة جيدة وسلام وازدهار. يجب أن ندفع الآن من أجل الملكية المحلية اللامركزية والمشاركة في إنتاج السلع والخدمات الاجتماعية.

تستخدم الحكومات المركب الصناعي العسكري لخفض مشاركة المواطنين في العمليات الديمقراطية، وعلينا التأكد من أن هذا التراجع عن الحقوق المدنية لن يصبح عنصرًا ثابتًا في الحياة في حقبة ما بعد فيروس كورونا.

الصالح العام يتطلب بياناتنا الشخصية

* بروس شناير أستاذ محاضر في كلية هارفارد كينيدي، أحدث كتاب له بعنوان «انقر هنا لقتل الجميع: الأمن والبقاء في عالم شديد الترابط»

كانت هناك معركة أساسية في المجتمعات الغربية حول استخدام البيانات الشخصية، وهي معركة تضع حق الفرد في الخصوصية مقابل قيمة تلك البيانات لنا جميعًا بشكل جماعي. حتى الآن، تمركز معظم الجدل حول رأسمالية المراقبة. على سبيل المثال، تُظهر لنا خرائط غوغل حركة المرور في الوقت الفعلي، ولكنها تفعل ذلك من خلال جمع بيانات الموقع من كل شخص يستخدم ذات الخدمة.

يضيف فيروس كورونا المستجد إلحاحًا جديدًا للمناقشة ويجلب جهات فاعلة جديدة مثل سلطات الصحة العامة والقطاع الطبي.. لا يتعلق الأمر فقط بتطبيقات الهواتف الذكية التي تتعقب جهات الاتصال مع الأشخاص المصابين والتي يتم طرحها حاليًا بواسطة الشركات والحكومات في جميع أنحاء العالم.. سيقوم المجتمع الطبي بمحاصرة الوباء عبر تعزيز قبضته للوصول إلى البيانات الصحية التفصيلية لإجراء جميع أنواع الدراسات البحثية.. ستضغط سلطات الصحة العامة من أجل المزيد من المراقبة من أجل الحصول على إنذار مبكر للأوبئة في المستقبل.. إنها نفس المقايضة: هذه البيانات تعد شخصية للغاية بالنسبة للفرد، ولكنها ذات قيمة هائلة لنا جميعا

إيجاد مخرج لهذا الجدل يعني التفكير الدقيق في كل حالة محددة وتحليل أخلاقي لكيفية تأثير القضايا المعنية على قيمنا الأساسية.. لن تكون إجابات تطبيق القانون والشبكات الاجتماعية والبيانات الطبية هي نفسها.. بينما نتحرك

نحو مزيد من المراقبة، نحتاج إلى معرفة كيفية الحصول على أفضل ما في الاثنين: كيفية تصميم الأنظمة التي تستخدم بياناتنا بشكل جماعي لإفادة المجتمع ككل، وفي الوقت نفسه حماية الأشخاص بشكل فردي.

عن مجلة فورين بوليسي

https://foreignpolicy.com/2020/05/16/future_government_powers_coronavirus_pande-/mic

التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن يمكن إعادة تشكيله رقميًا

بموازاة انتشار فيروس كورونا، نظريات المؤامرة تنتشر بسرعة أقوى

* إليز توماس

رغم رفضها منذ زمن بعيد بوصفها أنها سخيفة، فإن منظري المؤامرة في وسائل التواصل الاجتماعي يشكلون باطراد تهديدا عالميا محتملا، ويصبحون مصدر قوة للدول التي تتطلع إلى تعطيل الرواية الواقعية ونشر التضليل.

في سياق أزمة كوفيد 19 العالمية، انفجرت نظريات المؤامرة عبر المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي.. وإذا كانت الحملات الدعائية في زمن الأوبئة ليست جديدة، فإن الجديد في الأزمة الحالية هو بيئة المعلومات العالمية التي تحدث وسطها.. تغذي التأثيرات والضغوط الحقيقية للوباء الديناميات الموجودة مسبقًا في النظام البيئي للمعلومات على الإنترنت وتضخم الشائعات، والأخبار الزائفة ونظريات المؤامرة، والأكاذيب الصريحة.. يعتبر الأمر بالنسبة للحكومات التي تسعى إلى بناء الثقة والتواصل بوضوح.. كابوسا، أما بالنسبة لأولئك الذين يتطلعون إلى زرع الفوضى والشك، فهي فرصة لا تعوض.

هناك مفهوم في دراسات وسائط التواصل الاجتماعي يعرف باسم «انهيار السياق».. عادة ما يُنسب إلى الباحث «دانا بويد» Danah Boyd، يشير إلى

الطريقة التي تأخذ بها وسائل التواصل الاجتماعي الرسائل، التي يقصد المرسل أن يراها جمهور محدد في سياق معين، وتخدم بها الآخرين الذين لم يكونوا من بين المستهدفين.

من المحتمل أنك واجهت ذلك بنفسك.. لقد شعر الكثير منا بالحرج من نشر نكتة أو دعابة على فايسبوك بهدف مشاركتها مع أصدقائك وبدلاً من ذلك ردّت جدتك، أو إبداء بعض التعليقات غير المهنية على حسابك الشخصي في التويتر ليطلبها مديرك في العمل يوم الاثنين الموالي.. إن طبيعة منصات التواصل الاجتماعي لديها طريقة لتحطيم السياقات الاجتماعية ودمجها في بعضها البعض بحيث تنتهي الرسائل المصممة لجمهور محدد إلى مس الآخرين أيضًا وتفسيرها بطرق غير متوقعة.

ما توضحه أزمة كورونا المستجد هو أن هذه الديناميكية لا تنطبق فقط على مستخدمي الوسائط الاجتماعية الفرديين الذين يديرون العلاقات الشخصية والمهنية؛ بل تنطبق أيضًا على تناغم نظريات المؤامرة المنتشرة عبر الشاشات وعبر عقول مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي حول العالم.

في الماضي، كانت نظريات المؤامرة والشائعات المتعلقة بالأوبئة في لندن وطهران وكينشاسا وشنزين(مدينة صينية) وموسكو مختلفة.. بينما في عصر منصات وسائل التواصل الاجتماعي العالمية، تعني ديناميكيات انهيار السياق أن نظريات المؤامرة التي يروج لها المستخدمون في مكان ما تصطدم بمستخدمين في أماكن أخرى.. تفتت الطبيعة المجزأة لوسائل الإعلام الاجتماعي المؤامرات إلى قطع صغيرة- حقيقة هنا، ادعاء كاذب هناك- إنشاء نوع من «طبق بتري» (وعاء أسطواني مغطى يستعمله علماء الأحياء لاستنبات الخلايا، كالبكتريا والفُطْريات) للمعلومات للتآمر عبر الدعاية، مما يسمح لأنصاف الحقائق والقصص المنتزعة

عن سياقها والمعتقدات الزائفة.. بالتدفق والتداخل مع بعضها البعض والانتشار بسرعة في جميع أنحاء العالم.

إحدى الطرق الرئيسية التي يتم بها هذا، تتمثل في استخدام «الهاشتاغ»، هاشتاغ المؤامرة الشائعة، خدعة كورونا #coronahoax أو # covid19hoax ، من قبل مجموعات متعددة من المتآمرين في بلدان مختلفة يعملون كناقلي إرسال ثلاثي الأبعاد فيما بينهم، على سبيل المثال، الجيل الخامس من شبكات الاتصال (5G) ونظريات مؤامرة مكافحة التلقيح تمر عبر الهاشتاغ وتلتقي مع اليمين المتطرف أو محتوى «QAnon» والعكس صحيح.. (بدأت حركة «كيو أنون» «QAnon» في أمريكا عام 2017 بعد أن نشر شخص يستخدم حسابًا مجهولاً يُعرف فقط باسم Q نظريات مؤامرة عن الرئيس الأمريكي ترامب على منتدى الإنترنت 4chan.. يعتقد منظمو مؤامرة «كيو أنون» أن عصابة دولة عميقة من النخب العالمية مسؤولة عن كل الشر في العالم). يستخدم منظّرو المؤامرة أيضًا علامات الهاشتاغ بنشاط لمحاولة نشر رسائلهم عبر العالم، على سبيل المثال باستخدام هاشتاغات متعددة خاصة بمنطقة ما.

هذه العدوى لها تأثير عام في تضخيم وتقوية نظريات المؤامرة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى طبيعة خوارزميات وسائل التواصل الاجتماعي، والتي تم تصميمها لتحسين المشاركة.. فالقاعدة الأساسية هي أنه كلما زاد عدد المعتقدين بكذبة ما، انتشر المحتوى الذي ينشئونه للترويج لهذه الكذبة وزاد تفاعلهم مع هذا المحتوى.

يمكن أن تكون هناك خمس نظريات مؤامرة مختلفة، ولكن إذا كانت جميعها تحتوي على حقيقة أن فيروس كورونا المستجد تم إنشاؤه في مختبر «فورت ديتريك» «Fort Detrick» في ماريلاند، فإن النتيجة بشكل عام هي محتوى يربط «فورت ديتريك» بفيروس كوفيد 19 أكبر بكثير مما كان يمكن أن يكون عليه الأمر

لو اقتصر الكذب على مؤامرة واحدة.. ستأخذ الخوارزميات المصممة لتحسين التفاعل في الاعتبار المستوى العالي من التفاعل على المحتوى الذي يربط «Fort Detrick» بكوفيد 19 ويبدأ بنشاط في التوصية بالتآمر للمستخدمين الآخرين.. على سبيل المثال، اعتبارًا من 8 أبريل، اشتملت أهم عمليات البحث ذات الصلة الموصى بها من طرف غوغل عن «Fort Detrick» على فيروس كورونا والأسلحة البيولوجية لـ «فورت ديتريك».

هذه الديناميات لها عواقب في العالم الواقعي، حيث ارتبطت الهجمات الأخيرة على البنية التحتية للاتصالات في المملكة المتحدة ارتباطًا مباشرًا بنظريات المؤامرة التي تم فيها دمج أزمة كورونا المستجد في السرد الحالي المضاد للتلقيح والمضاد للجيل الخامس من وسائل الاتصال.. انتشرت نظريات المؤامرة حول التأثيرات الصحية المفترضة للجيل الخامس مثل حرائق الغابات عبر وسائل التواصل الاجتماعي في السنوات الأخيرة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن المؤامرة غالبًا ما تمر عبر مجموعات مكافحة التلقيح الراسخة، والتي يعتقد الكثير منها الآن أن 5G إما تسبب المرض مباشرة أو أنه جهد متعمد لاستخدام الإشعاع لإضعاف أجهزة المناعة لإجبار الجميع على قبول التلقيح.

تختلف تفاصيل كيفية تلقيح كوفيد 19 عن هذه المؤامرات الموجودة مسبقًا؛ يقول البعض إن أزمة الفيروس التاجي هي غطاء لتسريع تنفيذ شبكات الجيل الخامس للاتصالات، بينما يعتقد البعض الآخر أن تجاربالجيل الخحامس للاتصا في ووهان الصين، أضرت بالجهاز المناعي للسكان كجزء من خطة أوسع لفرض التلقيحات القسرية.. يدعي البعض أن خرائط النقاط الساخنة للجيل الخامس تتطابق مع تفشي كوفيد 19 أو تعتقد أن لها علاقة بالتدخل في الأوكسجين الجوي.. تجمع بعض السلالات كل ما سبق، وتسرد حكاية لا معنى لها حول مشروع لمؤسس شركة «مايكروسوفت بيل غيتس» لإخلاء سكان الكوكب باستخدام اللقاحات، الجيل

الخامس للاتصال وفيروس كورونا المستجد.

حظر محرك البحث غوغل الإعلان عن مصطلحات البحث المتعلقة بمؤامرة الجيل الخامس الكورونية، ويضاعف كل من تويتر وفايسبوك جهودهما للقضاء على هذه المؤامرات الكورونية على منصاتهم.. ليس من الواضح أن هذا الحظر سيكون ناجحًا في منع انتشار المؤامرة، أولاً، لأن إزالة محتوى المؤامرة يمكن أن يؤجج المؤامرات نفسها عن طريق خلق شعور بالإيذاء والرقابة («إليك ما لا يريدونك أن تعرفه!») وثانيًا لأن التغطية الإعلامية السائدة على نطاق واسع التي أعقبت الهجمات وسلطت الضوء على المؤامرة ستدفع حتمًا المزيد من المستخدمين للبحث عن معلومات عنها، وبالتالي نشر النظرية وقيادة حلقات التغذية المرتدة الخوارزمية.

استخدمت روسيا نظريات المؤامرة كسلاح ضد الغرب لعقود.. خلال الثمانينيات، انخرط الكرملين في حملة تضليل استمرت لسنوات عُرفت باسم عملية Infektion لنشر نظرية المؤامرة بأن فيروس نقص المناعة البشرية كان سلاحًا بيولوجيًا أنشأته الولايات المتحدة – أيضًا في فورت ديتريك، التي أصبحت عنصرًا أساسيًا في الأسلحة البيولوجية لنظريات المؤامرة وظهرت أيضا في مؤامرات حول الإيبولا والجمرة الخبيثة– فالتاريخ لا يعيد نفسه، ولكن يمكن إعادة تشكيله رقميًا.

كانت عملية Infektion حملة طويلة الأمد وكثيفة الموارد شملت العديد من المنافذ الإذاعية والمطبوعة الممولة من الاتحاد السوفياتي واستغرقت شهورًا وفي بعض الحالات سنوات لنشر روايتها في جميع أنحاء العالم.. على النقيض من ذلك، تم إطلاق مؤامرات اليوم في بنية تحتية عالمية للمعلومات تم تحسينها لمواجهة الفيروسية.. في عام 2020، يمكن أن تصل نظريات المؤامرة إلى أي مكان تقريبًا، على الفور، وبتكلفة منخفضة بشكل لا يصدق.

ساعد الإنترنت أيضًا في تآكل سلطات حراس بوابة وسائل الإعلام التقليدية، مما سمح لجميع أنواع المبحرين في عبابه بشكل مريح- من منظري المؤامرة المحلية والنقاد السياسيين، ومستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي من المهتمين العاديين والمضطربين- بأن ينتجوا المحتوى ويضخموا السرد بشكل مستقل بدون تكلفة على الإطلاق.. لقد ساعد تطور بيئة المعلومات في العقود الأخيرة على جعل نظريات المؤامرة أداة أسرع وأرخص وأكثر فاعلية لنشر عدم الثقة والتضليل.

كانت روسيا سريعة في اغتنام الفرص التي تتيحها بيئة المعلومات الجديدة. وبشكل متزايد، يبدو أن الصين قادمة أيضًا لتعزز المشهد، إذ كرست وسائل الإعلام الصينية وتغريدات الدبلوماسيين على تويتر العديد من نظريات المؤامرة حول الفيروس التاجي، سواء من خلال تضخيم وسائل الإعلام الغربية الهامشية للترويج لرواية مؤامرة من أصل أمريكي أو من خلال لي عنق كلمات الطبيب الإيطالي Giu-seppe Remuzzi **للدلالة على أن الفيروس قد نشأ في إيطاليا.**

هذا يؤكد أن التفاصيل الفعلية للمؤامرة لا تهم كثيرًا، طالما أنها تثير الارتباك والشك.. بدلاً من الاستنباط المرهق للقصص المتضمنة في أشكال أخرى من عمليات المعلومات، إن الأمر أشبه برمي حفنة من بذور الهندباء في الريح؛ كل ما عليك فعله هو الانتظار ومعرفة مدى انتشارها.. لست مضطرًا حتى لتزرع البذور بنفسك؛ من الأيسر والأكثر فعالية حصاد ما ينمو عمليا.. لنأخذ حالة Maatje Benassi **وهي سائقة دراجة سباق تبلغ من العمر** 52 **عامًا، تتنافس في فريق رياضة التحمل العسكرية الأمريكية.. في** 23 **مارس، نشر منظّر المؤامرة الأمريكي جورج ويب مقطع فيديو على موقع يوتيوب، يصفها بأنها «المريض صفر» التي نقلت السلاح البيولوجي كوفيد** 19 **من «فورت ديتريك» إلى الصين عندما شاركت في منافسات الألعاب العسكرية العالمية في ووهان أكتوبر** 2019. **(يجب التأكيد على أنه لا**

يوجد أي دليل على الإطلاق على نظرية المؤامرة هذه)، ويب هو من مستخدمي يوتوب الراسخين ويجر وراءه قائمة طويلة من الترويج للمؤامرة التي تتمحور حول الولايات المتحدة إلى حد كبير، ويبدو أن مقطع الفيديو الخاص به عن الدراجة «بيناسي» قد استهدف بشكل مباشر الجمهور المعتاد على التآمر والمشاهدين اليمينيين.. ولكن هذه المرة ، كان الآخرون يشاهدون أيضًا.

التقطت وسائل الإعلام الحكومية الصينية المؤامرة، وزادت من حجمها عبر العديد من منافذ اللغة الصينية وعلى WeChat. تُظهر بيانات اتجاهات غوغل زيادة في الاهتمام بـ«بيناسي، لا سيما في الصين وأجزاء أخرى من آسيا، في 24 مارس. لقد بحث عدد كافٍ من المستخدمين عن المؤامرة التي توصي بها غوغل بـ«Maatje Benassi كورونا فيروس»، و«بيناسي: المريض صفر» كبحوث ذات صلة لاسم «بيناسي». في غضون أيام، كانت المؤامرة تسري مسرى النار في الحطب عبر فايسبوك وتويتر ويوتوب بالعديد من اللغات والتقتطها وسائل الإعلام الرقمي في جميع أنحاء العالم من إندونيسيا إلى إيران وكشمير إلى كوبا.

إن قضية الدراجة «بيناسي» ليست فريدة من نوعها.. تلعب ديناميات مماثلة عبر روايات مؤامرة متعددة، على سبيل المثال، علقت عالمة الأبحاث التشيكية Sona Pekova في مقابلة مع قناة تلفزيونية سلوفاكية أنها تعتقد أن بعض الطفرات في الفيروس لا يبدو أنها ذات أصل طبيعي(على الرغم من أنها أوضحت لاحقًا أنها لا تدعي أنها مصطنعة بالتأكيد، بل فقط شاذة).

بالتوازي مع ما حدث للطبيب الإيطالي، تم التقاط تعليقات «بيكوفا» من قبل وسائل الإعلام الموالية للصين ومقرها هونغ كونغ تحت عنوان «عالمة الأحياء الجزيئية التشيكية الدكتورة (سوا بيكوفا) توضح بعبارات غير عادية أن فيروس كوفيد 19 نشأ في مختبر بالولايات المتحدة وليس في الصين».. زعمت القصة

الإخبارية أن بيكوفا «قالت إن الصين ليست بحاجة إلى دحض أي شيء حول هذه النظرية [إن الفيروس تم إنشاؤه في المختبر]». في الواقع، لم تقل بيكوفا شيئًا من هذا النوع في المقابلة، لكن هذا لم يمنع الترويج للمقال على نطاق واسع عبر وسائل التواصل الاجتماعي كدليل على مؤامرة الولايات المتحدة الأصل.

حالة أخرى هي «هوانغ يان لينغ»، عالم أبحاث صيني ظهر على مقطع فيديو مؤامرة على يوتيوب يُلقى عليه اللوم ويُتهم بأنه هو من أنشأ فيروس كورونا في مختبر بيووهان.. تم التقاط الفيديو من قبل وسائل الإعلام الأمريكية الموالية لترامب، واكتسح اسم «هوانغ» وسائل التواصل الاجتماعي.

تميزت الاستجابة العالمية لجائحة كورونا بنقص حاد في أجهزة التنفس والأقنعة ومعدات الحماية. ومع ذلك، هناك مورد آخر يتضاءل عرضه بسرعة: ثقة الجمهور.. فالثقة في الحكومات والسلطات الطبية أمر حيوي للغاية لتحقيق هذا النوع من التغيير السلوكي الشامل اللازم لإخراج العالم من هذه الأزمة.. إن الآثار المدمرة لنظريات المؤامرة على وسائل التواصل الاجتماعي، إلى جانب الدول القومية الراغبة في استغلالها، تعرض للخطر هذه الاستجابة ويمكن أن تكون قاتلة بأكثر من طريقة.

ملحوظة: حذفت من المقال ما حسبته لا يدخل في اهتمام المتتبع العربي.

* إليز توماس صحفية مستقلة وباحثة في مركز السياسة السيبرانية الدولية في معهد السياسة الإستراتيجية الأسترالي.

الرابط الأصلي للمقال:

https://foreignpolicy.com/2020/04/14/as_the_coronavirus_spreads_conspiracy_theories_are_going_viral_too/

كيف ستبدو الحياة في مدننا بعد جائحة فيروس كورونا

تقع المدن في قلب هذا الوباء، كما كانت خلال العديد من الأوبئة في التاريخ. نشأ الفيروس في مدينة مزدحمة بوسط الصين، ثم انتشر بين المدن واستحوذ على معظم الأرواح.. أصبحت نيويورك، أتعس وأكثر بؤرة لانتشار للفيروس في العالم، الأشد حزنا.

لا يزال معظمنا يتجولون في المنزل، ونادرًا ما يخاطرون بالتجول في شوارع فارغة مزعجة، ولا يزالون في حيرة من كيف ستبدو الحياة الحضرية بعد ذلك.. هل ستنجو المطاعم وتعود الوظائف؟ هل سيظل الناس يسافرون في قطارات الأنفاق المزدحمة؟ هل نحتاج حتى إلى أبراج مكاتب عندما يكون الجميع متواصلون عبر تطبيق زووم Zoom؟ تعال إلى التفكير في الأمر.. فجأة تبدو فكرة العيش في مزرعة جذابة.

تزدهر المدن بفرص العمل واللهو وبالتنوع اللامتناهي للسلع والخدمات المتاحة.. وإذا أضحى الخوف من الفيروس هو الوضع الطبيعي الجديد، فقد يكون للمدن مستقبل عليل وعقيم، وربما حتى فاسد ومخيف.. ولكن إذا وجدت مدن العالم طرقًا للتكيف، كما فعلت دائمًا في الماضي فربما لا يزال أمامها أعظم عصر.

لمساعدتنا على فهم الحياة الحضرية بعد الوباء، طلبت مجلة فورين بوليسي من 12 خبيرًا عالميًا رائدًا في التخطيط الحضري والسياسة والتاريخ والصحة توقعاتهم عن مستقبل مدننا بعد كورونا.

ستنجو مدننا من فيروس كورونا

* ريتشارد فلوريدا أستاذ بكلية روتمان للإدارة بجامعة تورنتو ومحاضر بجامعة نيويورك، ومؤلف كتاب «صعود الطبقة المبدعة والأزمة الحضرية الجديدة»

ظلت المدن بؤرة انتشار الأمراض المعدية منذ عهد جلجامش، لكنها كانت دائمًا تستعيد انتعاشها، وغالبًا ما تصبح أقوى من ذي قبل.. دمر الموت الأسود مدنًا في أوروبا خلال العصور الوسطى، وفي آسيا على طول الطريق حتى بداية القرن العشرين.. قتلت الإنفلونزا الإسبانية عام 1918 ما يصل إلى 50 مليون شخصا في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك ازدهرت نيويورك ولندن وباريس في أعقابها.

في الواقع، يُظهر التاريخ أن الناس غالبًا ما انتقلوا إلى المدن بعد الأوبئة بسبب فرص العمل الأفضل والأجور الأعلى التي قُدمت بعد الانخفاض المفاجئ في عدد السكان.

ستتم إعادة تشكيل بعض جوانب مدننا ومناطقنا الحضرية، اعتمادًا على المدة التي سيستمر فيها الوباء الحالي. الخوف من الكثافة، ومن ميترو الأنفاق والقطارات على وجه الخصوص، بالإضافة إلى الرغبة في محيط أكثر أمانًا وخصوصية قد يجذب البعض نحو الضواحي والمناطق الريفية.. يمكن للعائلات التي لديها أطفال والبسطاء خاصة، استبدال شققهم في المدينة بمنزل به فناء خلفي. لكن هناك قوى أخرى ستدفع الناس إلى العودة نحو المراكز الحضرية الكبرى.. سيستمر الشباب الطموح في التدفق على المدن بحثًا عن الفرص الشخصية والمهنية، قد يتراجع الفنانون والموسيقيون بسبب انخفاض الإيجارات، وذلك بفضل التداعيات الاقتصادية للفيروس.. وقد تفتح الأزمة نافذة قصيرة لمدننا- التي لا يمكن تحمل

تكاليفها والتي تتسم بالتحول الشديد- لإعادة ضبط وتنشيط مشاهدها الإبداعية.

دائمًا ما تتبع التنبؤات بموت المدن صدمات كهذه التي نعيشها اليوم، لكن التحضر كان دائمًا قوة أكبر من الأمراض المعدية.

النظر إلى ما وراء كارثة الوظائف الحضرية

❖ إدوارد جلايسر أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفارد ومؤلف كتاب «انتصار المدينة: كيف يجعلنا اختراعنا الأعظم أكثر ثراءً وذكاءً وصحةً وسعادة»

قبل جائحة فيروس كوفيد 19، كنت أثق في قدرة المقاولين الحضريين على خلق وظائف خدماتية كافية لتكذيب الرؤى البئيسة لاقتصاد آلي.. لطالما وفرت إمكانية توفير المتعة من خلال تقديم قهوة «لاتيه» مع ابتسامة، ملاذًا آمنًا حيث يمكن للعاطلين العثور على عمل.. لكن إذا أصبحت الأوبئة روتينية، فإن التفاعلات البشرية ستخلق الخوف أكثر من الفرح، وستختفي هذه الوظائف.

لقرن مبارك، ظلت المدن الغربية صحية.. لقد نسينا أن المرض المعدي شكل ثروات المدن منذ أن قتل طاعون أثينا بريكليس، شهد ذلك القرن الآمن انتقال الوظائف من المزارع إلى المصانع إلى قطاعات الخدمات التي توظف الآن 80 في المائة من العمال.

في الولايات المتحدة وحدها، هناك 32 مليون وظيفة في تجارة التجزئة والترفيه والضيافة. إنهم في الخطوط الأمامية للوباء.. وجدت إحدى الدراسات الاستقصائية الحديثة أن 70 في المائة من المطاعم الصغيرة تتوقع إغلاقها نهائيًا إذا استمرت أزمة كوفيد 19 لمدة أربعة أشهر أو أكثر(حتى شتنبر 2020).

إذا أصبحت الأوبئة هي الوضع الطبيعي الجديد، فستختفي عشرات الملايين من وظائف الخدمات الحضرية، والفرصة الوحيدة لمنع كارثة في سوق الشغل تتمثل في استثمار مليارات الدولارات بذكاء في البنية التحتية للرعاية الصحية المضادة للوباء بحيث يمكن أن يظل هذا التفشي الفيروسي الرهيب انحرافًا لمرة واحدة.

فرصة لإعادة البناء بشكل أفضل

❖ روبرت موغاه مؤلف (مع إيان غولدين) كتاب»مائة خريطة للبقاء على قيد الحياة خلال المائة عام القادمة»

تقوم جائحة كوفيد 19 بإحداث تغيير في حياة المدينة.. ترهق المستشفيات وتدمر التجارة، وتقيد الولوج إلى الأماكن العامة، وتجهد البنية التحتية الرقمية، وتزيد من تحديات الصحة العقلية، وتجبر الناس على البقاء في منازلهم.. في حالة عدم وجود لقاح، يمكن أن تصبح العديد من هذه الاضطرابات دائمة.. كانت المدن تواجه بالفعل نقصًا مزمنًا في الإيرادات وعجزًا في الميزانية قبل تفشي الوباء. الأولوية الآن هي لإنقاذ الأرواح وتقديم الخدمات الأساسية والحفاظ على القانون والنظام.. هذا مهم بشكل خاص في مدن العالم النامي والأحياء العشوائية المكتظة حيث يؤدي ارتفاع أسعار المواد الغذائية إلى زيادة مخاطر الجوع والاضطرابات الاجتماعية.

يقوم رؤساء بلديات المدن عمليا بإعادة النظر في الخطط الحضرية لمنع الوباء القادم.. على المدى القصير سيقدم الكثيرون اختبارات جماعية وتتبع جهات الاتصال الرقمية، وتعديل المباني والأماكن العامة من أجل التباعد الاجتماعي وتعزيز الأنظمة الصحية للتعامل مع التهديدات المستقبلية.. سيسرع الوباء

أيضًا الاتجاهات الأعمق والأطول أمدا التي تؤثر على المدن، مثل رقمنة البيع بالتقسيط، والانتقال إلى اقتصاد غير نقدي، والتحول إلى العمل عن بُعد وتقديم الخدمات الافتراضية، وتعميم ممرات الراجلين على الشوارع.. سيصارع النقل العام للاحتفاظ بالركاب دون تعديلات التباعد الاجتماعي. وقد تصبح السيارات ذاتية القيادة وخطط التنقل الصغيرة حيوية بشكل متزايد.

يكشف الوباء عن طبيعة جودة الحكامة وحجم عدم المساواة في مدننا العالمية، في ذات الآن سيوفر فرصة لمصممي المدن والمقاولين لإعادة البناء بشكل أفضل.. سيكتشف بعضهم طرقًا لترقية سياسات تقسيم المناطق وتأمين المقتنيات لتعزيز الكثافة الذكية والاستثمار الأكثر مراعاة للبيئة.. فالمدن هي أحواض الاختبار المثالية للابتكارات الجديدة.. إذ طورت المدن المحركة الرائدة مثل أمستردام؛ بريستول، إنجلترا؛ ملبورن وأستراليا عمليا خططًا تعطي الأولوية للاقتصاد الدائري ومرونة المناخ، وعدم التسامح الجذري مع عدم المساواة.

جوعى للمتع البسيطة في الحياة بالمدينة

* توماس جيه كامبانيلا مؤرخ وأستاذ في تخطيط المدن ومدير برنامج الدراسات الحضرية والإقليمية في جامعة كورنيل

لقد عانت المدن من أوبئة مروعة عبر التاريخ، لكنها ازدهرت لتصبح أكبر وأكثر كثافة.. سيكون الانكماش المخيف للحياة الحضرية بعد فيروس كوفيد 19 مؤقتًا في أحسن الأحوال، حتى في الولايات المتحدة ذات التقاليد الطويلة في مناهضة التمدن.. غالبًا ما كانت المدن تُعتبر فاسدة وغير أخلاقية مقارنة بالريف- وهي عقيدة أعطتنا في النهاية الضواحي- حتى فيلادلفيا، أول مدينة كبيرة مخطط لها

في الولايات المتحدة، أبقت على مخاطر كثافة العالم القديم بين تنوعاتها بسبب قطعها الأرضية الأصلية الكبيرة عن المعتاد.. نجا مؤسس المدينة، ويليام بن، من طاعون ونيران لندن في ستينيات القرن السادس عشر ولم يرغب في أي منهما في مدينته.

إن الوباء الحالي مجرد آخر محور تاريخي يتوقع فيه النقاد موت المدينة.. فخلال العصر الذري، أصبحت المدن فجأة أهدافًا ساخنة ومتوهجة، مما أدى إلى حركة لامركزية حضرية خلال الحرب الباردة.. بالنسبة للمستقبليين مثل مارشال ماكلوهان وجورج جيلدر وألفين توفلر، كانت الاتصالات الرقمية هي التي ستقتل المدينة وتؤدي إلى العودة إلى الحياة الريفية من قبل من أطلقوا عليهم اسم ''العمال الفائقي التجريد''، لكن الكثافة الديمغرافة تدفقت بدلاً من ذلك إلى سان فرانسيسكو ونيويورك ولندن.. أدت هجمات الحادي عشر من شتنبر إلى اندحار ناطحة سحاب ومانهاتن السفلى، ولم يظهر أي منهما أي علامات على الذهاب بعيدا عن المدينة.

كيف ستبدو مدننا بعد وباء كورونا المستجد؟ ستختفي العديد من الحانات والمطاعم والمقاهي المفضلة لدينا، لكن ستحل محلها أشكال جديدة.. قد يتجنب كبار السن ومن يعانون من نقص المناعة المساحات الحضرية لبعض الوقت، مما ينتج عنه سكان وسط المدينة أصغر سنًا وأكثر لياقة وأكثر تحملًا للمخاطر.. وسيواجه الخوف المستمر الذي لا مفر منه من العدوى تأثير ارتداد الحجر الصحي: سيضغط الناس للخروج من حالة الإغلاق، جوعى للمتع البسيطة المتمثلة في التواجد بالقرب من بعضهم البعض في أحد شوارع المدينة المزدحمة.

ستتفوق المدن في الوقاية من الأمراض ومقاومتها

* ريبيكا كاتز الأستاذة في المركز الطبي بجامعة جورج تاون، حيث تدير مركز علوم الصحة العالمية والأمن

في جميع أنحاء العالم، يتدفق الشباب نحو البيئات الحضرية بحثًا عن العمل والتعليم، وفرص التفاعل مع أقرانهم، وعن تجارب جديدة في الثقافة والفنون.. مع استمرار انتشار فيروس كورونا- وبالنظر إلى وعينا الجديد بمخاطر الأمراض المعدية- أصبحت الكثافة السكانية فجأة أقل جاذبية، وأضحت الشقق المشتركة التي تعد نقطة انطلاق منخفضة التكلفة للوافدين الجدد لتجربة اتساع المدن، مصدر قلق للقاطنين في الأماكن المغلقة خلال الحجر الصحي. في الوقت نفسه، رأينا أثرياء المدن، الذين طوروا مدينة تلو أخرى، يهربون إلى منازلهم الصيفية.. قد يعيد الكثير منهم حساب أفضلياتهم بشكل دائم.

الآن بعد أن أنشأ الكثير منا إجراءات جديدة تعمل عن بعد عبر عدد لا يحصى من مؤتمرات تطبيق زووم، قد نشرع في رؤية نزوح جماعي من المدينة إلى المزيد من البيئات الريفية، في حين أنه من المستحيل التنبؤ بما سيكون عليه الوضع الطبيعي الجديد، فقد يحدث التحضر العكسي.

ومع ذلك، فإننا نتوقع أيضًا أن يتفوق قادة البلديات في التأهب للأمراض والاستجابة لها. ما كان في يوم من الأيام منطقة من الإدارات الصحية تعاني من نقص التمويل والموظفين سوف تصبح أكثر قوة.. سنقوم بتطوير أفضل الممارسات لحماية صحة السكان في المدن، مما سيساعد على الحفاظ على جاذبية البيئات الحضرية.

يمكننا خلق مستقبل حضري أفضل حيث لا يتخلف أحد عن الركب

* ميمونة محمد شريف المديرة التنفيذية لبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية

يعيش حوالي 95 في المائة من المصابين بكوفيد 19 في المناطق الحضرية، وقد أظهر هذا بوضوح بعض التفاوتات الأساسية في قلب بلداتنا ومدننا.. سيضرب الفيروس التاجي أكثر الفئات ضعفاً، بما في ذلك مليارا من سكان المستوطنات العشوائية المكتظة بالسكان والأحياء الفقيرة في العالم، فضلاً عن الأشخاص الآخرين الذين يفتقرون إلى إمكانية الحصول على سكن لائق وآمن وبأسعار معقولة.. بدون مأوى، من المستحيل الاستجابة لنداء البقاء في المنزل. بدون مأوى آمن والوصول إلى الخدمات الأساسية، لا معنى لنصائح التزام الناس بمنازلهم.

يؤدي هذا الوباء بالفعل إلى تفاقم الانقسام الحضري الذي نتج عن فشل طويل الأمد في معالجة التفاوتات الجوهرية وضمان حقوق الإنسان الأساسية.. ستتطلب استجابة ما بعد كورونا، معالجة هذه الإخفاقات وتزويد جميع السكان الحضريين بالخدمات الأساسية- لا سيما الرعاية الصحية والإسكان- لضمان أن يتمكن الجميع من العيش بكرامة والاستعداد للأزمة العالمية المقبلة.. يجب أن تكون السلطات المحلية هي القوة الدافعة للحد من عدم المساواة، مدعومة بسياسات الحكومة الوطنية التي تزيد من مرونة المدن وسكانها.. المتفائل الأبدي بداخلي يطمح ويؤمن إيمانا راسخا بمستقبل حضري أفضل حيث لا يستثنى منه مكان ولا يتخلف أحد عن الركب.

ستتباطأ مدن الهند وتصبح أكثر نظافة وأقل ازدحامًا

*** كيران بيدي نائبة حاكم بودوتشيري بالهند أول امرأة في دائرة الشرطة الهندية وشغلت منصب المفتش العام في سجون دلهي**

ستصبح المدن أقل ازدحامًا ووتيرة نموها أكثر بطئا.. الهجرة السريعة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، مثل ما رأيناه في الهند، لا يمكن أن تستمر بنفس السرعة.. وقد يبدأ الناس في إعادة النظر في الزراعة.

ستفقد المدن جزءًا من تنوعها وحياتها الاجتماعية العامة، سيكون هناك تناول أقل للأكل بالخارج والمزيد من التوصيل للمنازل واستهلاك أقل للكماليات.. ستتحول دور السينما العامة إلى دور سينما منزلية.. لن تكون صالات الألعاب الرياضية وصالونات تصفيف الشعر مطلوبة لبعض الوقت، ما لم يتم الحفاظ على الممارسات الجيدة للتباعد الاجتماعي والنظافة والجنس التجاري سيتوقف عن العمل.

سيصبح النقل الحضري أكثر خصوصية لأسباب التباعد الاجتماعي. سيتراجع السفر في كل الأنحاء، ويصبح السفر الدولي من مدينة إلى مدينة أكثر كلفة بكثير.

ستتغير طريقة عملنا في المدن، بحيث يصبح العمل من المنزل خيارًا مدعومًا من خلال المؤتمرات عن بعد والمشاركة المستندة على شبكة "السحابة"❖ (شبكة من الخوادم البعيدة المستضافة على الإنترنت والمستخدمة لتخزين البيانات وإدارتها ومعالجتها بدلاً من الخوادم المحلية أو أجهزة الكمبيوتر الشخصية) بما في ذلك في الإدارة الحكومية.. ستصبح مساحة مكاتب العمل بسعر أقل بكثير، وسيكون هواء المدن أنظف والحياة الحضرية أقل كلفة.

أنشئوا المدينة الآمنة والمرنة التي نحتاجها طوال الوقت

*** جانيت صادق خان مديرة شركة «بلومبيرج أسوشيتس»، كانت مفوضة إدارة النقل بمدينة نيويورك بين عامي 2007 و 2013**

يمر طريق التعافي من هذا الوباء عبر شوارعنا، يمكننا إعادة المدن دون إعادة حركة المرور والازدحام الخانق والتلوث و1.3 مليون شخص يموتون في حوادث السير كل عام. يمكننا استعادة وإعادة ضبط شوارعنا لنقل الناس سيرًا على الأقدام أو بالدراجة أو بوسائل النقل العام- والقيام بذلك بأمان وبتكلفة معقولة وبسهولة، بغض النظر عن مكان إقامتهم في المدينة.. ولدينا فرصة لمنح سكان المدينة عبر العالم استقلالًا حقيقيًا في وسائل النقل، خيارات حقيقية للتجول وحرية عدم امتلاك سيارة.

يكشف وباء كورونا مدى اعتماد المدن على العمال الأساسيين، ومدى اعتماد هؤلاء العمال على القطارات والحافلات العامة للوصول إلى الوظائف في المستشفيات ومحلات البقالة وغيرها من الروابط في سلسلة التوريد.. تعتمد قدرتنا على تحمل هذا الوباء على بروتوكولات وقائية جديدة للحفاظ على سلامة الركاب وعمال النقل العام، وعلى الاستثمار في خدمات واسعة النطاق لتسهيل إدارة الأزمة التالية.

التحدي الذي نواجهه لا يتعلق بما إذا كانت المدن ستبقى كما نعرفها.. السؤال هو ما إذا كان سيكون لدينا الخيال والرؤية لتحويل الشوارع وإيجاد مدن أكثر أمانًا وسهولة في الوصول إليها وأكثر مرونة كنا بحاجة إليها طوال الوقت.

ستستعيد المؤسسات الجديدة المدن

* بروس كاتز المدير المؤسس لمختبر «معمل نواك مترو للتمويل'' في جامعة دريكسيل

يعلمنا التاريخ أن الأزمات عادة ما تؤدي إلى ظهور وكالات ومؤسسات حكومية جديدة، فقد أنشأت الولايات المتحدة وزارة الأمن الداخلي بعد هجمات الحادي عشر من شتنبر ومكتب الحماية المالية للمستهلك في أعقاب أزمة انهيار السكن عامي 2009-2008. لذلك من المرجح أن تدفع جائحة فيروس كورونا التغيير المؤسسي في المدن، إذ يتحتم أن تبرز قدرات جديدة لمواجهة الدمار الاقتصادي.

سيتطلب الانهيار غير المسبوق للمقاولات الصغرى، لا سيما تلك الموجودة على طول الممرات التجارية في المجتمعات المحرومة وتلك التي يملكها أشخاص ملونون، جمهورا جديدا أو وسطاء غير ربحيين لتقديم الخدمات للشركات التي تعاني من عجز مالي وتدريب متطور للمقاولين الجدد.. لدينا بالفعل حاضنات ومسرعات الأعمال- لكن ما نحتاجه الآن هو مُجددات الأعمال.. يجب أن يضمن ذلك الوصول إلى المنتجات المالية المدفوعة بالأسهم، بدلاً من مجرد تقديم المزيد من الديون.

في الوقت ذاته، ستزداد أهمية بنوك الأراضي العامة ومؤسسات التنمية غير الربحية- التي تسمح بتجميع الأراضي وتسريع عملية التنشيط، ستكون نماذج مثل شركة «تطوير المدينة والموانئ» في كوبنهاغن أو شركة «تطوير مدينة سينسيناتي»، التي حظيت بإعجاب واسع ولكن نادرًا ما يتم الاقتداء بها، مدخلا أساسيا للانتعاش الحضري.. بدون تغيير مؤسسي جذري، سيستغرق الانتعاش الشامل للمدن وقتًا طويلاً جدًا في المستقبل.

السكن الحضري سيصبح أرخص

*** جويل كوتكين أستاذ في جامعة تشابمان والمدير التنفيذي لمعهد الإصلاح الحضري ومؤلف كتاب "مجيء الإقطاع الجديد: تحذير للطبقة الوسطى العالمية"**

ستبقى المدن ضرورية للمجتمع البشري، لكنها بحاجة إلى التغيير.. لقد اجتمع فيروس كورونا والاكتظاظ السكاني العالي الكثافة منذ البداية- من نشأة الوباء في الصين الحضرية المزدحمة وغير الصحية إلى بروز معدلات مرتفعة جدا من حالات الاستشفاء والوفاة في المدن الكبرى عبر العالم.. لا يمكن أن يكون الاختلاف مع المناطق النائية الأقل كثافة سكانية أكثر وضوحا، خاصة في الولايات المتحدة، حيث تحملت مدينة نيويورك وطأة الوباء.

قد تشمل الإجابات على هذا المشكل، السماح بمزيد من النمو في الأطراف والضواحي، الأمر الذي يتطلب تغييرات جوهرية في لوائح استخدام الأراضي وتقسيم المناطق؛ تشجيع العمل عن بعد حيثما أمكن ذلك؛ وتطوير أنظمة نقل شخصية ومستقلة في نهاية المطاف بدلاً من إجبار الناس على ركوب قطارات الأنفاق المزدحمة. عندما ابتليت المدن بالأوبئة في أوائل القرن العشرين، استجاب المجتمع بخفض الكثافة.. انتقل عدد سكان مانهاتن من حوالي 2.5 مليون نسمة في عام 1920 إلى 1.5 مليون عام 1970 وحدثت عملية مماثلة في وسط لندن وباريس مع انتقال المزيد من الناس إلى الأطراف، أصبحت المدن أكثر أمانًا وصحة، ستساعدنا إستراتيجية مماثلة في المستقبل.. قد يسمح بعض تشتت السكان أيضًا بانتشار الوظائف وتقليل تكاليف الإسكان الحضري، ومع ذلك يجب تصميم الجيل القادم من الضواحي لتقليص الانبعاثات والمزيد من العمل في المنزل بما يضمن تنقلات أقل.

نداء يقظة للمدن من أجل إعادة التفكير في نموذجها الاقتصادي

* تشان هينج تشي أستاذة بجامعة سنغافورة للتكنولوجيا والتصميم ورئيسة مركز «لي كوان يو» للمدن المبتكرة

كانت جائحة فيروس كورونا بمثابة دعوة ليقظة المدن في جميع أنحاء العالم لإعادة التفكير في التخطيط الحضري مع اعتبار الأمن الصحي أولوية قصوى. في سنغافورة، تمت إعادة تنظيم النظام الصحي بالفعل في أعقاب وباء السارس عام 2003، لكن الأمر مختلف مع هذا الفيروس التاجي.. هناك العديد من جوانب الأمن الصحي التي تشكل تحديات خاصة لمدينة تفتقر إلى المناطق الريفية النائية، لا سيما تلك التي تنطوي على ضعف سلاسل الإمدادات الطبية والغذائية.

جانب آخر في مدينة مثل سنغافورة هو تأمين صحة عدد كبير من العمال الأجانب المهاجرين الذين ساعدوا في بناء المدينة والحفاظ عليها.. يبلغ إجمالي عدد سكان سنغافورة 5.7 ملايين نسمة، منهم ما يقرب مليون عامل من شبه المهرة وغير المهرة، بما في ذلك عمال المنازل الأجانب وحوالي 300 ألف عامل مهاجر يعمل معظمهم في البناء، جلهم يقيمون جماعة في مهاجع ضخمة mega-sized dor-mitories. هذا العيش الجماعي المختلط، بالإضافة إلى مواقع العمل المزدحمة، سهلت إصابة العديد من العمال بفيروس كورونا المستجد. بعد الوباء، ستتم إعادة النظر في تصميم المهاجع بالتأكيد وتعزيز البروتوكولات.

ومن شبه المؤكد أن يعاد النظر في النموذج الاقتصادي الحالي- الذي يعتمد بشكل كبير على العمال المهاجرين للنمو والتنمية.. سيتم تعزيز التكنولوجيا

لزيادة الإنتاجية، الذي دعت إليه الحكومة منذ فترة طويلة، بإلحاح كبير لتقليص الاعتماد على القوى العاملة للإنتاجية.

يجب علينا استعادة الثقة في سلامة العيش في ظل الكثافة

* دان دوكتوروف الرئيس التنفيذي لشركة " سايدووك لابزSidewalk Labs" ونائب العمدة السابق للتنمية الاقتصادية وإعادة بناء مدينة نيويورك

ستعود المدن أقوى من أي وقت مضى بعد الوباء.. ولكن عندما ستفعل ذلك، ستكون مدفوعة بنموذج جديد للنمو يشدد على الشمولية والاستدامة وإتاحة الفرص الاقتصادية.. حتى قبل الأزمة، كانت المجتمعات الحضرية في جميع أنحاء العالم تطالب بتكاليف أقل للمعيشة وخطط أقوى للتصدي لتغير المناخ، حتى أن بعض المدن التي لا يمكن تحمل تكاليف العيش فيها، مثل نيويورك، كنا نرى السكان يغادرون المدينة.

سيبدأ إنعاش النمو السكاني في المناطق الحضرية بعد الوباء باستعادة الثقة في الصحة العامة بالمناطق الحضرية وفي سلامة الاكتظاظ السكاني. ولكن عندما يعود الناس إلى المدن- كما فعلوا دائمًا في الماضي- يجب علينا الاستفادة من السياسات والتقنيات الجديدة لجعل تكلفة الحياة الحضرية ميسرة ومستدامة لعدد أكبر من الناس.

يمكن لطرق البناء الأرخص والأكثر مرونة مثل البناء الخشبي الطويل أن تخفض كلفة السكن وتقلل بشكل كبير من البصمة الكربونية للمباني الجديدة.. كما يمكن لخيارات التنقل الجديدة وامتدادات النقل العام أن تساعد السكان في

الوصول إلى الوظائف دون الحاجة إلى امتلاك سيارة.. وأن تمكّن ابتكارات الطاقة من تزويد الأحياء بحاجتها إلى الكهرباء.. وهو ما سيقلص من التأثير على المناخ بدون فواتير الخدمات التي تلتهم الميزانية.

إذا انتهزنا هذه الفرصة للبناء بشكل أفضل فلن تنتعش المدن فحسب، بل ستوفر فرصًا أكبر مما كانت عليه قبل انتشار فيروس كورونا.

عن مجلة فورين بوليسي

https://foreignpolicy.com/2020/05/01/future-of-cities-urban-life-after-coronavirus-pandemic/

الفهرس

إهداء	03
تقديم	05
شعب المناعة القوية في حضرة الإمبراطور «كوفيد» التاسع عشر	13
رجاء لا تأتوا مسرعين إلى العالم، لا نريد ولائم للحداد !	18
إلى أثرياء المملكة: فكروا بغيركم لتسعدوا بثرواتكم	22
هكذا حول فيروس كورونا الإنسان المعولم إلى فارس بلا وجود	29
فيروس كورونا يعيد السحر إلى قلب العالم وبضائع استهلاك الرفاه تفقد المعنى	34
«كوفيد التاسع عشر» يهزم النظام الدولي الجديد ويزعزع الثقة بقيمه	38
الوباء ينعش تجار المآسي .. و «الكورونوفوبيا» أخطر من الفيروس	41
هكذا أصبحت الكمامات رمزا مكثفا لعصرنا يخفي تحته طبقات من الأساطير والرموز	45
الأثرياء الكبار وجائحة كورونا: عدل «الفيروس التاجي» مجرد وهم	58
قطبية جديدة، استبداد رقمي، عودة الدولة الراعية	63

«الكورونية» تشرع أبواب الكون على اختبارات الفردانية القاسية أو التضامن الإنساني 71

ها هنا دولة.. ها هنا أمة 75

صحافة القيّاد والقايدات البوكوصات 80

وداعا للصحف الورقية وانعموا بهواتفكم البليدة 84

هكذا ستعيد جائحة كورونا المستجد تشكيل الجغرافيا السياسية.. 93

كل عصر يصاب بالأمراض المعدية التي تناسبه 99

لماذا يتجاهل السياسيون توقعات الكوارث؟ 108

العناية بحفظ الصحة العامة لا تعني التنازل عن حق الخصوصية 112

الخصوصية وجائحة كوفيد 19: حان الوقت لشرعنة الحقوق الرقمية 120

هكذا ستؤدي جائحة كورونا إلى توسيع سلطة الحكومات بشكل دائم 126

التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن يمكن إعادة تشكيله رقميًا 139

كيف ستبدو الحياة في مدننا بعد جائحة فيروس كورونا 147